مركز الدراسات
و البحوث الانسانية
والاجتماعية وجدة
CERHSO

مركز الدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية وجدة
CENTRE D'ETUDES ET DE RECHERCHES HUMAINES & SOCIALES OUJDA

سلسلة دفاتر المركز 2

التأثير الموريسكي في المغرب



د. أحمد الكامون
د. هاشم السقلي

أحمد الكامون :

- أستاذ بكلية الآداب والعلـوم الإنسانية - جامعة محمد الأول - وجدة

- حاصل على دكتـوراه الدولة في الأدب الإسباني .

- له عدة مساهمات وطنية ودولية في ميدان الدراسات الإسبانية والأدب المقارن والحضـارة الأندلسية، منشورة في مجلات مختصة.

- حاصل على أول جـائزة للقصة القصيرة المغربية المكتوبة بالإسبانية.

- عضو بـوحدة التـرجمة - قسم الإسبانية - بمركـز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة.

من أعماله المنشورة:

لـوركا والثقافة المغربية (بحث بالإسبانية).

الغـزالة والـواحة - ترجمة من الإسبانية إلى العـربية.

وجدة بعيون أجنبية - عمل مشتـرك ، نصوص متـرجمة ضمن منشورات كلية الآداب بوجدة.

المسـرح والمجتمع - عمل مشتـرك بالإسبانية منشور بإسبانيا.

هاشم السقلي :

- أستاذ الثانوي التأهيلي

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا المعمقة، وحدة البحث والتكوين: التواصل الحضاري من كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الأول - وجدة

- تحضـير أطروحة دكتوراه في التاريخ تحت عنوان " الموريسكيون ودورهم في التواصل بين المغرب وأوروبا " بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الأول - وجدة

له عدة مساهمات علمية في ندوات وأيام دراسية وطنية



مركز الدراسات
و البحوث الإنسانية
والاجتماعية وجدة
CERHSO

سلسلة دفاتر المركز -2-

التأثير الموريسكي في المغرب

د. مولاي أحمد الكامون

ذ. هاشم السقلي

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلفان:

د. مولاي أحمد الكامون

ذ. هاشم السقلي

الكتاب: التأثير الموريسكي في المغرب

رقم الإيداع: 2010MO2295

الطبعة الأولى: مارس 2010



صورة الغلاف رسمها الفنان الإسباني فرانسيسكو براديا إي أورتيز سنة 1882م وتعبر عن استسلام غرناطة في 2 يناير 1492م.

مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – وجدة

1، زنقة الفقيه النكادي 60000 وجدة – المغرب

الهاتف: 94 81 68 36 5 (00212) / المحمول: 16 11 25 61 6 (00212)

الفاكس: 92 33 68 36 5 (00212) / البريد الإلكتروني: cerhso@gmail.com

الموقع الإلكتروني: www.cerhso.com



المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

تسترجع ذاكرة الإنسانية هذه السنة ذكرى أليمة، فقد مرت 400 سنة تماما على صدور قرار الطرد النهائي للموريسكيين من كامل التراب الإسباني، بعد مرحلة من التعايش بينهم وبين الإسبان المسيحيين في الأندلس بدأت مع الفتح الإسلامي، وامتدت سبعمائة وإحدى وثمانين سنة، حتى تسليم مفاتيح غرناطة سنة 1492؛ لتبدأ مرحلة جديدة من الاضطهاد والعدوان.

وتعتبر قصة اقتلاع الوجود الإسلامي في الأندلس ملحمة تاريخية حقيقة امتدت لنحو مائة سنة، بدءا بالسقوط السياسي للممالك المسلمة رغم ما سبق ذلك من تعهدات بحسن المعاملة[1]، ثم مرحلة فرض التنصير وانطلاق محاكم التفتيش التي بصمت التاريخ ببصمتها المرعبة، وأخيرا الطرد بمقتضى مرسوم9 أبريل 1609 الذي دشن فترة الإجلاء النهائي للموريسكيين من كامل التراب الإسباني؛ وهكذا أصدر الملك فيليب الثالث Philippe III يوم 11 شتنبر مرسوما بخصوص فالينسيا، وفي يوم 12 يناير 1610 بخصوص أندلوسيا، ويوم 19 ماي بخصوص أراغون، ويوم 29 ماي

---

(1) – على سبيل المثال فقد نصت اتفاقية تسليم غرناطة الموقعة في 25 نوفمبر 1491، والتي طبقت يوم 2 يناير 1492 على احترام المسيحيين لممتلكات المسلمين ومعتقداتهم واستعمال الشريعة الإسلامية كمصدر للقضاء، بل شددت على السماح بالعودة للمسلمين الذين ذهبوا إلى شمال أفريقيا ولم ترقهم الحياة هناك.

بخصوص كاطالونيا، ويوم 10 يوليوز بخصوص قشتالة والمنشا وأكيطريمادورا، ويوم 18 أكتوبر 1610 بخصوص مرسية... ومن ثم امتدت عملية الطرد لعدة سنوات لاحقة في الفترة بين 1609 و 1614 حيث تم تهجير موريسكيي باقي ممالك وأقاليم إسبانيا.

غير أنه من الممكن القول إن أكبر التحولات التي عرفتها البيئة المجتمعية في الأندلس إبان الوجود العربي الإسلامي بها، والتي ربما فاقت في تأثيرها وخطورتها بالنسبة للرؤية المسيحية الإسبانية المتعصبة انتشار الإسلام في هذه الأرض، هي تحول المجتمع الأندلسي إلى جزء من امتداد مجتمعي أوسع لمجتمع العدوة المغربية.

إذ من المعروف أن معنى كلمة موريسكيون في قاموس اللغة الإسبانية يشير إلى أن مصدر كلمة "موريسكي" هو كلمة "مورو"، التي اتصلت بكلمة Morisco باللاتينية، وتعني سكان شمال أفريقيا؛ ثم تحولت لفظة موريسكيين إلى معنى المسلمين الذين بقوا في إسبانيا تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الممالك الإسلامية، وأجبروا على اعتناق المسيحية.

فحتى بعد سقوط الإطار السياسي للممالك المسلمة في إسبانيا، بل وحتى بعد حملات التنصير بالإكراه لمن بقي من المسلمين في هذه الأرض، فإن الطرد الجماعي كان مصير الموريسكيين بأعداد تقدر

بمئات الآلاف[2]، بمعنى أنه حتى مع إنهاء الوجود الإسلامي كان هنالك إصرار على تقويض المجتمع الموريسكي في الأندلس، وبالتالي إحداث هذا الشرخ المدوي في النسيج المجتمعي المشترك بين المغرب والأندلس، وقد انتبه إلى هذه المسألة عدد من المؤرخين والباحثين المعاصرين في الموضوع ومنهم المؤرخ ميغيل آنخيل لديرو آيسادا في كتابه "غرناطة: تاريخ دولة إسلامية 1232- 1571" حين أكد أن " صدور مرسوم 1502 الخاص بتتصير المسلمين كان يعني نهاية المجتمع الإسلامي في غرناطة وإسبانيا والتحول إلى مجتمع موريسكي"!.

ومن هنا تأتي أهمية الاهتمام العلمي –المغربي خاصة – بهذا الموضوع الذي برز فيه عدد من المؤرخين والباحثين المعاصرين الكبار، ويأتي في طليعتهم المؤرخ المغربي محمد بن عزوز حكيم وغيره من الأسماء المغربية المعروفة.

فإذا كان هنالك دافع لتناول هذا الموضوع متصل بالسياق الإنساني والحضاري، ومعني بالذاكرة ومعالمها والحفاظ عليها، خاصة مع المحطة التي نشهدها في الذكرى ال400 لهذه الملحمة الإنسانية الخالدة، فإن ثمة سياقا معرفيا لعلاقة المغرب بالمسألة

---

(2) – تتراوح التقديرات التي تعوزها الوثائق الدقيقة غالبا بين مليون شخص كما تشير بعض المصادر المغربية و272 ألفا حسب الوثائق الإسبانية موزعين كالتالي: 117 ألفا و 464 موريسكيا من منطقة فالنسيا، وستون ألفا و 818 من أراغون و 44 ألفا و 625 من كاستيا وإكستيمادورا وقرابة ثلاثين ألفا من غرب الأندلس و 13 ألفا و 552من مورسيا وثلاثة آلاف و 716 من إقليم كاتالونيا وألفان و 26 من غرناطة .

الموريسكية، والتأثير الذي كان لهذه المحطة التاريخية على المغرب من النواحي المختلفة، وخاصة على صعيد الحياة المجتمعية الواحدة وتجلياتها المختلفة في معيش الإنسان وحياة الجماعة.

وهو سياق لايقل أهمية عن سابقه، ولعلنا في مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة نكون معنيين به بشكل أكبر وقد فتحنا مشروعات للبحث تتصل بدراسة معرفية مركبة لتاريخ المغرب في أبعاده المعرفية والحضارية، وعلاقات التأثير بين ذلك التاريخ وبين مشروعه الوطني الحديث في النهوض والتقدم.

كما يأتي إخراج كتاب "التأثير الموريسكي في المغرب" للباحثين الأستاذ الدكتور مولاي أحمد الكامون الأكاديمي المرموق في مجال الدراسات الإسبانية والأندلسية، والأستاذ هاشم السقلي الباحث في نفس المجال، إحياء لتقليد علمي أصبح يتراجع للأسف وهو العمل العلمي الجماعي، وخاصة ذلك الذي يشترك فيه الطالب مع أستاذه، إذ يعطي هذا من رصيده الرمزي وسمعته العلمية دفعا وتشجيعا للباحثين الجدد الذين يرى فيهم علامات الاجتهاد ومؤشرات النبوغ.

ومركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة إذ يقدم هذا العمل الجديد ضمن سلسلة "دفاتر المركز" من إصداراته ليرجو كعادته أن يكون فاتحا لأفق السؤال ومستحثا لهمة البحث والمعرفة.

والله الموفق

سمير بودينار

تصديـر

1. مقدمـة

بحلول 22 من شهر شتنبر 2009 تنتهي أربعمائة سنة على جلاء الموريسكيين عن شبه الجزيرة الإيبرية تنفيذا للقرار الجائر الذي اتخذه في حقهم الملك الإسباني فيليب الثالث 1609م، مدعوما بالكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابا.

وقد نزل هذا القرار كالصاعقة على أناس عُزَّل ساهموا في إقامة حضارة إنسانية راقية، لم تعرف أوروبا القروسطية ميلادها، كما لم يعرف الغرب الإسلامي فاجعة إنسانية كالتي عرفها بطرد الموريسكيين وتشريدهم واقتلاعهم من أرض عاشوا فيها أكثر من ثمانية قرون.

فمن العار إذن أن يتقاعس المغاربة خصوصا عن إحياء هذه الذكرى الأليمة التي طوحت بألوف من الأسر نحو المجهول، أطفالٌ ونساء وكهولٌ، أصبحوا بين عشية وضحاها بلا أرض ولا مأوى، لا لشيء سوى أن يصفوا أنفسهم بأنهم لم يكونوا السابقين للتطرف، وعدم التسامح والإرهاب، وكل النعوت القدحية التي ألحقت بهم، ولا تزال من قبل أعدائهم.

مع شتنبر 1609م ابتدأت إذن رحلة شاقة نحو المجهول، كما صورها الكاتب اللبناني أمين معلوف في روايته الرائعة: Léon L'Africain

وكأن بهذا القرار الجائر اكتملت الصفحة الأخيرة لتجربة حضارية رائعة اسمها الأندلس، افتتحها طارق بـ: " أيها الناس، أين المفر..." وكأن لسان حال الموريسكيين يردد العكس: " أيها الناس أين المفر...الصليب وراءكم والتيه أمامكم فليس لكم إلا الصبر أو الموت ".

وهذا التمزق لا زال صداه يتردد في الموروث الأدبي الأندلسي.
تقول إحدى القصائد من الطرب الغرناطي الوجدي: (نوبة رمل الماية)

من تلك الديار شممت نفحا　　　من رقة نفوسنا

مالت العمائم من فوق رؤوسنا

فقلت يا كرام ما ذي الفرجة　　　واختيار جلوسنا

واشتقنا لحضرة حضرة أندلسنا

جئت من مالقة بجسمي وحده　　　وخلفت روحي

في غرناطة واش نعمل يا ربي

(الجمعية الموصلية بوجدة : شتنبر 1992).

2. ملاحظات وتوضيحات:

هذه المحنة، محنة الموريسكيين أبطالها ثلاثة: مسلمون ومسيحيون ويهود. وكل من هؤلاء الأبطال كان لهم موقف خاص منها، وتأويل يتفق والطرح التاريخي الذي يخدم مصالحه، لهذا لا بد من التوضيحات الضرورية في البداية وتعريف المصطلحات الآتية:

- الموريسكيون: الأصل الإفريقي Amauros يعني داكن البشرة "الروماني" سكان شمال إفريقيا: Moritaine، ولكن في القاموس الأندلسي: الموريسكيون هم المسلمون القدامى الذين مكثوا بالأندلس بعد سقوط غرناطة، واعتنقوا المسيحية ظاهريا تحت ضغط محاكم التفتيش للتكيف مع ما أطلق عليه آنذاك إسبانيا المسيحية، على مستوى المعتقد واللغة والعادات والأسماء، إلا أنها في الخفاء كانت تقوم بممارسة شعائرها الإسلامية تحت "التقية"، وكانت لها أدبيات وأساطير ولغة (الخميدو) وكانت عملية الطرد نتيجة لاستحالة إدماج هذه الشريحة المسلمة في الثقافة المسيحية.

- محاكم التفتيش: هي في الأصل محكمة دينية رهبانية أنشئت في بداية الأمر لتعقب الجماعات التي تعتبرها خارجة عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وتشكل خطرا على مصالحها، معتبرة إياها نوعا من المبتدعة. مثل المتنورين (صوفية) والبروتيستانت Cathare الذين كانوا يدعون إلى العزوف عن الماديات، واتخاذ المسيحية قدوة في الزهد والفقر، وكذا التصدي لليهود لأنشطتهم الربوية المجحفة...، وهذا

ماجعلها تحظى بمساندة السلطة السياسية. فكانت الكنيسة تتولى تعيين القضاة الذين يقومون بتطبيق الأحكام، بينما تختص الدولة بالتمويل.

وبعد سقوط غرناطة أصبحت مؤسسة وطنية إسبانية تلاحق المسلمين واليهود الذين لم يتنصروا، وتنزل أحكاماً قاسية عليهم: التنصير قسرا أو الجلاء أو الإحراق والمقصلة. ولم تحل في إسبانيا إلا مع دخول نابليون Napoléon سنة 1812م، ثم انتهى أمرها مع الملكة مريا كريستينا Maria Cristina سنة 1836م.

3. الجانب الإسباني:

واجهت إسبانيا هذه الذكرى (400 سنة) بنوع من البرودة واللامبالاة، اللهم إلا بعض التظاهرات المحتشمة لبعض المثقفين أو بمبادرة من بعض أحفاد الموريسكيين. وذلك خشية أن يشار إليها بالأصابع، في وقت كثر فيه الحديث عن التطرف والإرهاب والعنصرية.

وبعيدا عن اعتبار الحدث وصمة عار في جبين إسبانيا، حاول العديد من المؤرخين والمفكرين أن يروا فيه مسألة طبيعية وحتمية لأنها مكنت إسبانيا في النهاية من استكمال وحدتها الجغرافية والدينية وإجلاء جميع العناصر المشوشة، ولكن لماذا لم يتم هذا الاستئصال مباشرة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م وتأخر إلى سنة 1609م؟

❖ **أولا** إن هذا الاستسلام لم يكن شاملا، كان فقط من قبل فئة ظنت أنها ستبقى محافظة على امتيازاتها وأملاكها وشعائرها، كما نصت على ذلك معاهدة غرناطة التي لم تحترم فيما بعد من قبل الملوك الكاثوليكيين، بحيث لم يمر وقت طويل حتى بدأت مضايقة المسلمين للتخلي عن أراضيهم والتنازل عن عقيدتهم؛ فهاجر من هاجر وبقي من بقي، حتى الطرد النهائي سنة 1609م

❖ **ثانيا** الفئة التي بقيت . رغم الانتفاضات والثورات الدموية التي كانت تصدر عنها من حين لآخر عندما يضيق عليها الخناق . (مثل ثورة "جبال البَشَرَات" المشهورة في غرناطة) . فإن الملوك الكاثوليكيين توفقوا في التعامل معها تدريجيا بأسلوب يقوم على استغلالها والاستفادة منها، كما سنرى:

- <u>في عهد الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا وفيرناندو</u> كانت معاهدة غرناطة خدعة ضمنت لهم نوعا من الاستقرار، في وقت لا زالت فيه وحدة إسبانيا هشة موزعة الأطراف، ثم مكنت النبلاء ورجالات الكنيسة من الاستيلاء تدريجيا على أراضي المسلمين(عملية الاستيطان)، وكان هؤلاء من معارضي الطرد النهائي للموريسكيين الذين بقوا لأنهم كانوا يشكلون اليد العاملة التي لا محيد عنها، منهم المزارعون والبستانيون والحرفيون، أي المحرك الاقتصادي.

- <u>في عهد شارل الخامس</u>: بعد الاستقرار، عرفت إسبانيا نوعا من التوسع مع اكتشاف أمريكا الجنوبية وكنوزها الذهبية التي كان

ينفقها هذا الملك الذي كان يحلم بإقامة إمبراطورية مسيحية على غرار ما كان يحلم به الفرنسي شارلمان. فورط نفسه في حروب أوروبية استنزفت اقتصاد البلاد، مما جعله دائما في حاجة إلى المزيد من النهب لتحقيق إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس...، ولهذا تفطن إلى فئة الموريسكيين باعتبارها مصدرا لموارد مالية تساعده على استكمال توسعه فلجأ إلى قرار بتعميد مجبر لكل المسلمين الذين لم ينصروا، وطرد كل من لا يرغب في ذلك، لكنه تراجع ليقترح عليهم نوعا من الهدنة مقابل مائة ألف قطعة ذهبية، رغم تحذير البابا Clement VIII من خطر الموريسكيين ومكرهم.

- في عهد فيليب الثاني Philippe II: في سنة 1566م، عقد ابنه مجلسا من كبار رجالات الدين والشخصيات المرموقة في الدولة، ليس فقط لاستمرار عملية تنصير الموريسكيين التي كان دائما مآلها الفشل، ولكن محاولة لإدماجهم كليا في الحياة اليومية المسيحية في كل مظاهرها الاجتماعية والدينية واللغوية، تشمل حتى الهندام. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وخاف إذا تمادى في الضغط على الموريسكيين أن ينقلب المشكل ضده: ففي عهده وقعت معركة الملوك الثلاثة (معركة واد المخازن بالمغرب) التي قتل فيها الملك البرتغالي Sébastian، وأصبح العرش البرتغالي تابعا لإسبانيا بسبب المصاهرة والأواصر العائلية، مما أثار سخط البرتغاليين الذين لم يرضوا بهذا الاندماج. ومخافة أن يتحالف هذا السخط مع ما تجرعه الموريسكيون والعثمانيون

يجرؤ Philippe II على الطرد النهائي، كما أنه كان منهكا صحيا مما جعله ينزوي إلى قصر الأوسكوريال، بعيدا عن السياسة وأهوالها.

- في عهد فيليب الثالث: استجابة لضغوطات الكنيسة وتحذيرات البابا الذي كان يرى في وجود المورسكيين بإسبانيا تهديدا للكاثوليكية بشبه الجزيرة الإيبيرية، لجأ فيليب الثالث للطرد النهائي للموريسكيين، بدءا من منطقة بلنسية، متذرعا في هذا بمحاولة تواطئهم مع قوى أجنبية، لنقل العرش الإسباني إلى الملك الفرنسي هنري الرابع، وبعد بلنسية شمل الطرد منطقة قاطالونية ومُرسية وأراكون ومنطقة الجنوب حتى تجاوز عدد المطرودين 800.000 شخص وسنرى كيف استفاد فليب الثالث Philippe III من هذه العملية:

✓ رغم أن قرار الطرد كان سريا إلا أن بعض النبلاء المتعاطفين مع المورسكيين أبلغوهم بذلك، مما دفع العديد منهم إلى التخلص من ضيعاتهم وأمتعتهم وحليهم بأبخس الأثمان، والرحيل قبل نهاية الأجل المحدد خوفا من مصادرة كل الممتلكات، وكان الرحيل يتم على نفقة المطرود.

✓ يستثنى من الطرد الأطفال الصغار إذا ما وجد أحد من عائلاتهم قد تنصر وداوم على عقيدته الجديدة، ليسهل تعميدهم وتعويض خصاص اليد العاملة الموريسكية للانخفاض في الولادة الذي عرفته إسبانيا آنذاك.

✓ يسمح لكل ست أسر من بين مائة من المنازل الموريسكية بالبقاء ممن لا يشك كذلك في عقيدتهم المسيحية، وذلك:

- لتلقين تعاليم المسيحية للمتنصرين الجدد.
- تعليم الحرف والفلاحة لباقي الإسبانيين.

أما الجهات التي كانت قبلة المطرودين فهي:

1- **أوروبا**، تركيا، وفرنسا، وإيطاليا، وانصهر هؤلاء في التقاليد الأوروبية وعملوا في قطاع البحرية والتجارة والحرف...

2- **شمال إفريقيا**: وقد وجدوا صعوبة في الاندماج، نظرا للعادات والسلوكات التي هي أقرب إلى المسيحية التي تطبع بها الموريسكيون، مما جلب عليهم سخط الفقهاء.

أما المجتمع الإسباني فلم يتخلص من التمايز الذي كان بين المسيحيين والمسلمين، حيث تحول هذا التمايز إلى مستوى آخر بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد، الذين يعتبرون مواطنين إسباناً رسميا، ولكن من الدرجة الثانية على مستوى الامتيازات.

4. الجانب اليهودي (السفراد) هم سكان إسبانيا.

لقد شملت عملية الطرد كذلك العنصر اليهودي الذي لم يسلم من ملاحقة وسخط محاكم التفتيش، ولكن مصيرهم كان أقل مأساويا من الموريسكيين، وذلك لتجربتهم الطويلة في التعامل مع الأزمات، وتحويلها في معظم الأحيان لصالحهم، ويظهر هذا في عقد مقارنة مع ما عرفه الموريسكيون.

1- السفراد:

-القدرة على التجمع بعد التشتت.

-التعاطي للتجارة يسهل نقل رأس المال من مكان لآخر.

-سهولة التخلي عن العقيدة ظاهريا والتكيف مع الوضع الجديد.

-الهجرة إلى أوروبا الشمالية (التجارة ورأس المال).

-الهجرة إلى شمال إفريقيا (التجارة والحرف).

-الهجرة غير المكثفة وتكوين قومية جديدة: المسيحيون الجدد.

-امتصاص الثقافة المحلية وتحويلها إلى جزء من الهوية.

-إضافة رموز جديدة إلى الرموز الأصلية.

-ترجمة ومحاكاة أعمال الآخرين.

-ابن رشد = ابن ميمون.

-ابن طفيل = شمويل ابن طوبون.

-ابن باجة
-ابن مسرة } = يهود ابن سليمان

-الحريري = الحريزي

-ابن الخطيب = ابن سهل

2- الموريسكيون:

-ضياع بعد التشتت والذوبان.

-الأراضي والضيعات يصعب تحويلها.

-صعوبة التخلي عن العقيدة وعدم القدرة على الاندماج.

-الهجرة إلى أوروبا.

-الهجرة إلى شمال إفريقيا (الحرف والأرض).

-خروج مكثف وضياع الهوية.

-الهوية الثقافية تعتبر مسألة ثانوية أمام لقمة العيش.

-فقدان الرموز الأصلية.

-الجبهة الثقافية مغيبة (حاليا هناك من يعتقد أن دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية لم يجلب إلا الفقر والدمار لولا الجنس اليهودي).
Cesar Vidal

-موقف سلبي من التاريخ وضياع العبر منه.(ابن خلدون)

-تكرار مأساة الأندلس في العالم الإسلامي ونسيان الذاكرة الأندلسية.

-تفعيل التاريخ وتزوير معطياته. -ربط جميع كبار الرموز المسيحية الإسبانية بالمسيحيين الجدد: • إزابيل الكاثوليكية • القديسة تيريزا st.teresa • ميجيل دي سيرفانتس Miguel de Cervantes (أسطورة العبقرية اليهودية) -الاستفادة من التقنيات القديمة. • طرق الري -القرى المعلقة -أهمية الماء (محكمة بلنسية)	-فلاحة معاشية وتقنيات قديمة.

5. العبرة:

اليهود على قلتهم في عملية الطرد استطاعوا أن يخلقوا أسطورة المحرقة الأولى على يد محاكم التفتيش، وأن ينتزعوا الأعذار من العرش الإسباني، مع ما لهذا من امتيازات، كما حصل مع محاكمة النازية لتضخيم أسطورة "الشواه".

لقد تفنن اليهود في استنطاق الرموز وتسخيرها في كل ما يخدم وحدتهم وتجاوز كل ما من شأنه أن يشكل عائقا سيكولوجيا في ذاكرتهم الجماعية.

6. الموريسكيون في الأدب:

1. في الأدب الإسباني:

عرفت الفترة التي أعقبت طرد الموريسكيين ظهور نوع من الأدب اختصت به إسبانيا عن باقي الدول الأوروبية.

ذلك أن طرد الموريسكيين كانت له عواقب اجتماعية واقتصادية لم يعرَف لها مثيل. وقد أفرزت هذه الوضعية المزرية نوعا من الأدب يطلق عليه "أدب الصعاليك" أو الكدية، يصور حالة الفقر والبؤس التي عاشتها إسبانيا آنذاك، وهو نوع من أدب سردي تنتمي شخصيته إلى الفئات السفلى من المجتمع، تعيش على الدهاء والمكر والتسول، وتحتل الشخصيات الموريسكية حيزا مهما من بينها، وقد أسندت إليها بعض المهام والحرف أضحت صورا نمطية لها. ومن بين هاته الصور صورة الحمال، والسقاء، والبغال، والسفاج، والحجام...هذا بالنسبة للرجل. أما بالنسبة للمرأة الموريسكية فهي مشعوذة وتمارس مهنة القوادة والسحر وترميم العذارى وبيع الكحل والسواك في الأسواق...

إلى جانب هذه الصور القدحية، نجد أن الشعر والمسرح يحيلنا إلى صورٍ متناقضة تماما، إذ يعطينا صورا مشرقة عن شخصية الموريسكي ترقى إلى مستوى مثالي، ويعبر عن هذا التوجه الأدب الشعبي أو ما يطلق عليه أغاني الثغور، استلهم منها كبار الشعراء والمسرحيين آنذاك مادتهم الأدبية، مثل لوبي دي فيكا: Lope de Vega

وكالديرون دي لاباركا: Calderon de la Barca وغيرهم، وفي هذه الأعمال تتجلى شخصية المورسكيين مثالا في الشرف والنبل والفروسية والعاطفية الجياشة والدفاع عن القيم النبيلة، أما المرأة فهي نموذج في الطهر والعفاف تتقن الشعر والموسيقى وتنتمي إلى أعرق العائلات المشهورة في الأندلس.

وكأن من خلال هذا الأدب يحاول الضمير الجماعي الإسباني انتشال المورسكيين أدبيا من الوضعية المزرية التي آلوا إليها، وتكفيراً عن الذنب، إنه نوع من المسكن لتهدئة هذا الوجدان.

2. في الأدب الرومانسي:

لقد صاحب التيار الرومانسي الرحلات الاستشراقية للبحث عن فضاءات جديدة للإبداع يتسم بالغرائبية والسحر. وقد شكلت إسبانيا خصوصا المنطقة الجنوبية منها، المبدعين والفنانين من ضرب أكباد الإبل إلى الشرق الأقصى. فكانت الأندلس بكل مرجعياتها مصدرا خصبا للإلهام، ولا يتسع المجال في هذه المقدمة لذكر كل المبدعين الرومانسيين الذين تهافتوا على إسبانيا من مختلف البلدان والأمصار من روسيا وأمريكا وفرنسا وإنجلترا...

ومن بين الكتاب الفرنسيين نقتصر على الروائي والشاعر chateaubriand (1768-1848) صاحب رواية "آخر بني سراج" (1826) التي احتلت فيها شخصية الموريسكي ابن حامد درجة راقية من طهارة الروح ونبل العاطفة في حبه للمسيحية Blanca de vivar حفيدة البطل

الملحمي "السيد" فاتح مدينة بلنسية وصديق إمارة بني هود. وتتجلى كذلك صورة الموريسكي في الحكايات والنصوص التي جمعها الأمريكي Washington Erving في كتابه: Cronicas moriscas. (حكايات تاريخية موريسكية)...

وفي هذه الذكرى الأربعمائة لطرد الموريسكيين لم يتوان بعض الكتاب الإسبانيين في العودة إليها لإحيائها في إبداعاتهم حسب تأويلاتهم الشخصية. وقد برز في سنة 2009 الكاتب والروائي Ildefonso Falcones في روايته الضخمة (960 ص) la mano de fatima (يد فاطمة). وفاطمة هي الفتاة الموريسكية التي عشقها بطل الرواية Hernando وهو ابن لراهب إسباني من فتاة موريسكية قام باغتصابها إثر انتفاضة البَشَرَات بغرناطة. والأحداث الرئيسة تمر في رحاب قرطبة بقصورها ومسجدها الكبير، وكنائسها حيث تتهافت الرموز الدينية بالمسيحية... وهذا النوع من الكتابات رغم أنها تمتح من تاريخ الموريسكيين فإنها تبحث في معظمها عن الأجواء الغرائبية والصور النمطية التي تدغدغ الحواس أكثر ما تتجه إلى العقل. فتبقى النزعة المسيحية والتفاضل العرقي والحضاري هو الغالب.

7. كلمة أخيرة

لقد حلت هذه الذكرى المؤلمة، بعد أربعة قرون، لتجد العالم الإسلامي ممزقا، ومتناحرا، والمسلمون يعانون من الحصار والتجويع والتقتيل والتنصير. لم تعد محاكم التفتيش تلاحق الإنسان المسلم على عقيدته، ولكن باسم الإرهاب الذي تمارسه عليه، وبالتطرف لتخفي نزعتها العنصرية... جاءت هذه الذكرى واستقبلها العالم الإسلامي باحتشام، متطلعا إلى خطاب أوباما في القاهرة ينتظر الخلاص كما انتظره أجدادهم الموريسكيون من الملوك الكاثوليكيين بإسبانيا منذ سقوط غرناطة...

أما اليهود السفراد، على قلتهم في عملية الطرد، مقارنة بالمسلمين الذين غادروا شبه الجزيرة الإيبيرية، فقد استطاعوا أن ينتزعوا الاعتذار من التاج الإسباني على ما لاقوه من "عنصرية" واضطهاد من محاكم التفتيش.

لقد تفننوا في استنطاق الرموز وتسخيرها في كل ما يخدم قضاياهم المفتعلة، وفشل المسلمون في انتشال الذاكرة الأندلسية من الضياع، وأخذ العبرة من الماضي لتسخيرها في الحاضر.

وهذا الكتيب نقدمه ،بهذه المناسبة، من أجل التفكير، وهو ثمرة الدرس الذي كنا نلقيه في وحدة التواصل الحضاري، وقد أخذ الأستاذ الباحث- هاشم السقلي - على عاتقه مهمة الاستمرار في

البحث في ميدان "الموريسكيات" كموضوع للدكتوراه التي هي في بداية الإنجاز تحت إشرافنا وإشراف الدكتور الفاضل محمد منفعة.

وتشكراتنا الخالصة لمركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة على مساعدته لإخراج هذا العمل في هذه المناسبة بالذات.

أحمد الكامون

وجدة في: 2010/02/20

مدخل

لم يكن الفتح الإسلامي لإسبانيا مجرد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال ثم هبطت إلى الجنوب، بل كان حدثا حضاريا هاما امتزجت فيه حضارات سابقة (رومانية- قوطية) مع حضارة جديدة لاحقة وهي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوربي المجاور، فأثرت فيه كما تغلغلت في الحياة الإسبانية وتركت فيها آثارا عميقة مازالت معالمها واضحة إلى اليوم.

ومن المعلوم أن المسلمين حينما دخلوا إسبانيا وجدوا فيها سكاناً مثل القوط، وبقايا الرومان، فاختلطوا بهم ولم تلبث أن نشأت طبقات اجتماعية جديدة ومتنوعة من بينها:

- المسالمة أو الأسالمة

ويسميهم المؤرخون المسلمون بهذا الاسم، وهم الإسبان الذين دخلوا الإسلام، وقد كان لسياسة التسامح الحكيمة، التي سار على نهجها الفاتحون العرب عقب الفتح أثر كبير في انتشار الإسلام بين عدد هائل من الإسبان، وبالتدريج نبذ كثير من أهل الذمة دينهم المسيحي، واعتنقوا الإسلام[3]. ويعتبر حسين مؤنس أن الجماعات التي

---

[3] – سالم عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، بيروت، 1408/1988، ص : 127.

أسلمت من الإسبان كانت من العبيد بحيث بدا لهم الإسلام مخرجاً من المتاعب التي كانوا يئنون تحت وطأتها[4].

- المولدون

تشمل هذه التسمية أبناء المسالمة الذين سبقت الإشارة إليهم، فعندما دخلوا الإسلام، أطلق على أبنائهم الذين نشأوا على الإسلام اسم المولدين[5]، والاسم نفسه يطلق على الأندلسيين الذين هم من أب مسلم وأم نصرانية، وقد كان وراء انتشار هذا النوع من الزيجات ظروف الفتح الإسلامي، فقد ترك الفاتحون متاعهم في بلادهم، فأقبلوا على مصاهرة الإسبان وأهل البلاد، ومضوا على هذا النحو يتزوجون من الإسبانيات ماشاؤوا، وكان عبد العزيز بن موسى بن نصير أول من تزوج بإسبانية إذ تزوج أرملة لذريق[6] فحدا حدوه رجال العرب.

وهكذا امتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد، وعن طريق هذه المجاورة والمصاهرة انتشر الإسلام في الأندلس انتشارا تجاوز كل تقدير في الحسبان.

---

(4) – مؤنس حسين، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، ط 2 الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1405/1985، ص : 430.

(5) – نفسه، ص : 425، وهنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية، ترجمة طاهر أحمد مكي، ط 1 ، دار المعارف، 1988 ص : 231– 232.

(6) – ابن القوطية، أبو بكر محمد، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، ط 1 ، بيروت، 1994، ص : 79.

وقد كان للمولدين الاختيار في اتخاذ أسماء عربية[7]، أو الاحتفاظ بأسمائهم القديمة، أمثال بني أنجلين Angelino وبني شبر Sabarico وبني الجريج Jorge وبني لنتف longo وبني القبطرنة kabturno وبني مردنيش Martinez وبني غرسية Garcia وبني ردلف Rodolfo[8]، حتى إن ابن القوطية يفتخر بنسبه إلى بيت الملك غيطشة[9].

وبقدر ما كان للمولدين دور إيجابي في سرعة انتشار الإسلام، فقد كان لهم دور سلبي في ما عانته الأندلس من فوضى وحالات الاضطراب، بسبب تعصبهم إلى أصلهم الإسباني - مع كونهم مسلمين- فتحالفوا مع العجم والنصارى في الأندلس، وقد استغل المولدون فرصة ضعف الدولة الأموية أيام الأمير عبد الله وثاروا في نواح مختلفة من الأندلس ضد السلطة المركزية[10] وشكلت ثورة ابن حفصون أخطر هذه الثورات.

- **المستعربون**

هذا اللفظ لم يكن مستعملا عند عرب الأندلس بصورة رسمية ودليلنا في ذلك أنه لم يظهر في كتابات المؤرخين والجغرافيين

---

(7) – بيريس، م.س، ص : 232.

(8) – سالم عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم... م، س، ص : 128–129، مؤنس، فجر الأندلس م.س، ص : 431.

(9) – مؤنس م، س، ص : 431.

(10) – عن ثورات المولدين، انظر، ابن حيان أبو مروان، المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور إسماعيل العربي، ط 1 ، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، 1411/ 1990، ج 3.

والفقهاء وأهل الأدب ومن إليهم، ولكنه ظهر في وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادي عشر ثم في كتابات النصارى[11]، ويدخل ضمن الاسم الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم ولذلك عرفوا بالمستعربين، وكان يسميهم العرب بعجم "الذمة" أو أهل "الذمة"، أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين، وكان المستعربون أو العجم في الأندلس يؤلفون جمهرة سكان البلاد في السنوات الأولى التي تبعت الفتح الإسلامي، ولكن عددهم أخذ يتناقص تدريجيا بينما أخذ عدد المسالمة يزداد يوما بعد يوم، وما لبثوا أن أصبحوا -أي المستعربون- بمرور الزمن أقلية في الأندلس بالنسبة للمسالمين والمولدين[12].

وقد عومل هؤلاء المستعربون[13]، منذ الفتح الإسلامي معاملة طيبة فتمتعوا بحرية كبيرة في إقامة شعائرهم الدينية وغيرها، وظلوا يتمتعون بهذه الحرية إلى غاية بداية حركة الاسترداد المسيحية في قلب إسبانيا، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس لمصلحة الدول المسيحية، وخاصة بعد حملة ألفونسو المحارب 519هـ/ 1125 م الذين اجتاح بلاد الإسلام حتى أدرك قرطبة وإشبيلية وزاد اضطهاد الموحدين

---

(11) – مؤنس م، س، ص : 425.

(12) – سالم عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم ... ، م، س ص : 130.

(13) – ذنون عبد الواحد طه، دراسات أندلسية (المجموعة الأولى) ط 1، منشورات مكتبة بسام ، الموصل، 1986، يتحدث في الصفحة 236-237 عن دور هؤلاء في نقل المؤثرات الإسلامية إلى إسبانيا الإسلامية.

لهم بعد اكتشاف دسائسهم، يقول صاحب المعجب : " وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور أشد خلفاء الموحدين وطأة على أهل الذمة"[14].

- المدجنون

وهم المسلمون الذين عاشوا في حماية الممالك المسيحية في إسبانيا بعد أن اشتدت حركة الاسترداد في شبه الجزيرة الإيبيرية منذ سقوط طليطلة 478 هـ/ 1085 م إلى سقوط غرناطة سنة 897 هـ/ 1492 م، والمدجنون هو مصطلح مشتق من دجن أي قام خاضعا غير أنه تحرف على ألسنة الإسبان في بعض الأحيان إلى "دجل" و"دجر" وصار الموصوف به يسمى "مدجلا" و"مدجرا" فقيل موديخار Mudejar[15]، وقد شاع استعمال لفظ أهل الدجن والمدجنين في الكتابات العربية، وقد احتلت حالة المدجنين حيزا لا بأس به من اهتمام كتب النوازل وعلى رأسها "المعيار" للونشريسي[16].

ولم تكن وضعية المدجنين سيئة حتى بعد سقوط طليطلة ولكن وضعهم تدهور بعد معركة الزلاقة سنة 479 هـ/ 1086 م وما تلاها من صراع مرير بين المسلمين في الأندلس والممالك النصرانية، ففقد

---

(14) – المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط 7، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص : 435.

(15) – دنون عبد الواحد طه، أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس نموذج تطبيقي عن كتاب المعيار، ضمن أعمال الندوة الدولية حول حضارة الأندلس في الزمن والمكان، الرباط، 1992، ص : 138.

(16) – الونشريسي أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي. دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1981، ج 2 ، ص : 119 وما بعدها.

المدجنون حقوقهم وضماناتهم، واجتهد رجال الدين النصارى في التأليب عليهم فتعرضوا لمختلف الأذى والاضطهاد، وكان عليهم أداء "ضريبة Cenas reales عن محلاتهم السكنية[17]، والمعروف أن هذه الجماعات الإسلامية قامت بدور فعال مؤثر في البيئة المسيحية الإسبانية ومثلت صورة حية للإسلام والمجتمع الإسلامي بنظمه وتقاليده وعاداته بعد زوال الهيمنة السياسية والعسكرية للمسلمين، فقد أبقى عليهم النصارى الإسبان واستخدموهم في ممالكهم إدراكا منهم لأهمية هذه الجماعات وبراعتهم في الفنون والصناعات في الوقت الذي حافظت فيه هاته الفئات على عروبتها وتقاليدها، فبقيت آثارها ماثلة للعيان لا سيما في مجال العمران[18].

- **الموركسيون**

أول إشكالية تصادف الباحث هي قضية لقب "الموريسكي" كصفة للدلالة على الأندلسي المتنصر، وإذا حاولنا أن نبحث في أصل المصطلح سنجد بأن أصله من اللغة البربرية من كلمة "أمور" وتعني البلد أو الدولة أو القسمة، ودخلت هاته الكلمة إلى اللغة اللاتينية وأصبحت Mauri-Maurus وتعني سكان المغرب[19].

---

(17) – دنون عبد الواحد طه، دراسات أندلسية... م، س، ص : 251.

(18) – قشتيليو محمد، الفن المعماري الإسلامي في المعابد المسيحية بإسبانيا، دعوة الحق، ع0 243 دجنبر 1405/1984 ، ص : 94 وما بعدها.

(19) – السائح الحسن، الحضارة المغربية، البداية والاستمرار، منشورات عكاظ، الرباط، 2000، ج 3، ص : 69.

وكلمة المريسكوس تصغير لكلمة Moros ، وهو اللقب الذي أطلقه الإسبان على جميع المسلمين الذين كانوا يحكمون الأندلس ثم غلبوا على أمرهم فصغر اسمهم تهوينا لهم.

لكن وبالرغم من شيوع اللقب واعتباره مصطلحاً تاريخياً متداولاً ، فإن القبول به فيه نوع من الإجحاف في حق العناصر الأندلسية ، وإقرار بوضاعتهم التي يعتقدها من أطلق عليهم هذا اللقب، بما يحويه من تحقير لهم وانتقاص من قدرهم. إذ ما عرفوا بذلك إلا بعد أن اضطهدوا باعتبارهم مسلمين أصاغر أذلاء. وما الحرص على استعماله للدلالة عليهم إلا في المؤلفات المسيحية ، وبالمقابل لم نقف من خلال المؤلفات العربية المعاصرة للقرن 16 - و17 م على من يذكرهم من دون لقب الأندلسيين، أو بلقب الغرباء عند الرغبة في الإشارة إلى من أجبروا على التنصير بالأندلس، وبلقب المدجنين في المؤلفات التركية[20].

إن جل المؤرخين يعتبرون بداية تاريخ المورسكيين عند اكتمال عملية الاسترداد المسيحي بقيادة الملك فرناندو والملكة إيزابيلا سنة 1492 م. ونتيجة لذلك درس المتخصصون في موضوع المورسكيين هاته الظاهرة من خلال زوايا مختلفة ، وفي أماكن مختلفة. وذلك بعد سنة 1492 م. وفي إطار الزمان وقع تركيزهم

---

[20] – اميلي حسن، الجهاد البحري بعصب أبي رقراق، رد فعل أندلسي، ضمن أعمال ندوة المغرب وإسبانيا خلال القرن السابع عشر، كلية الآداب الرباط، 1997، ص : 10 .

بالدرجة الأولى على نهاية القرن الخامس عشر إلى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلاديين. أما جغرافيا ، فلم ينحصر تاريخ الموريسكيين في الأندلس أو مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية التي حكمها المسلمون. لقد استقر الموريسكيون في أنحاء مختلفة من إسبانيا والبرتغال والمغرب وتونس والجزائر وفرنسا بل وصل بعضهم إلى القارة الأمريكية[21]. لكن السؤال الذي يبقى أساسيا هو هل بدأت ظاهرة الموريسكيين قبل سنة 1492م وبصفة أدق هل بدأت منذ سنة 478 هـ/ 1085 م[22]بعد سقوط طليطلة؟ وإذا كانت كذلك كيف يمكن مقارنة هذه الظاهرة في نشأتها أو في فترتها الجنينية مع تطورها في الفترات التي تلتها؟ وما هي ملامحها الأولى؟ .

لم تكن عبارة الموريسكيين موجودة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي، إلا أن عددا من المسلمين الأندلسيين وقعوا تحت الاحتلال المسيحي في الأندلس نفسها منذ القرن الخامس الهجري وقد أطلق عليهم المؤرخون المسلمون لفظ المدجنين. فمصدر المدجنين من دجن ومعناه أقام بالمكان إلا أن هذه العبارة لا تعكس الحقيقة لهذه المجموعة كما أنها لا تعتبر جوانبها المختلفة والمعقدة ولا أبعادها المأساوية التي تتشابه إلى حد كبير مع وضعية الموريسكيين منذ سنة 1492م.

---

(21) – كاردياك لوي، المرسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ترجمة عبد الجليل التميمي، ط 2، زغوان 1989 ص: 145.

(22) – ابن عبود محمد، مباحث في تاريخ الأندلس، منشورات عكاظ، الرباط، ص : 69 وما بعدها.

وعلاوة على هذا فإن عبارة الموريسكيين تحتوي على أحكام مسبقة لأنها كانت مستعملة من قبل المسيحيين الإسبان لتعريف الأندلسيين المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية والذين فرضت عليهم كشرط أساسي وضروري لاستمرارهم في بلادهم إسبانيا بعد احتلالها من قبل المسيحيين. وبعبارة أخرى نظر المسيحيون الإسبان إلى مجموعة الموريسكيين نظرتهم إلى "الآخر" ومع ذلك فإن الموريسكيين لم يعتبروا أنفسهم كذلك كما لم يشر إليهم إخوانهم في الدين في ما وراء العدوة، في المغرب وفي أقطار العالم الإسلامي بتلك العبارة.

لقد ظهرت هذه العبارة في الأصل لتحديد وتمييز أقلية في مجتمع أغلبية مسيطرة مسيحية. ومع ذلك فإن السؤال الذي نريد طرحه هو هل وجد الموريسكيون قبل وجود المصطلح نفسه؟.

إن وضعية الأندلسيين المسلمين الذين استمروا في طليطلة بعد احتلالها من قبل ألفونسو السادس سنة 478 هـ/ 1085 م، ووضعية المسلمين الذين استمروا في بلنسية بعد احتلال السيد رودريغو دياث El Cid Rodrigo Diaz لها المعروف بالكمبيادور El Campeador سنة 487 هـ/ 1094 م، تشيران إلى تقارب شديد بين وضعيتهم وبين وضعية الموريسكيين الذين بقوا بإسبانيا حيث فرض عليهم التنصير بعد سنة 1492 م.

1. السياسة اللّيِّنة التي وعد بها ألفونسو السادس طليطلة والسيد روديغو ديات بلنسية مقابل تسليم المدنيين

- طليطلة

لم تكن لألفونسو السادس أطماع في احتلال طليطلة إلا بعد أن اقترح القادر ذو النون عليه ذلك، عندما تعرض لضغوط عسكرية من لدن أقوى ملوك الطوائف الطامعين في طليطلة وبلنسية اللتين أساء القادر تدبير شؤونهما، ولقد قام القادر بن ذي النون بهاته الخطة بعد شعوره باليأس وفشله التام في إرضاء السكان بأبسط الشروط التي يجب على أي حاكم احترامها حتى يفرض نفوذه ويكسب احترام رعيته وهكذا حاول ألفونسو السادس إقناع سكان طليطلة من الأندلسيين المسلمين بالموافقة على حكمه فوعدهم باحترام شعائرهم الدينية وإسلامهم إلخ.... وفي ما يلي وصف دقيق لموقف ألفونسو تُجاه أهل طليطلة إثر استدعاء القادر له قصد تولي شؤونها.

"فلما تحقق القادر أنه لا طاقة له على الدفاع ولا سبيل له عنهم إلى امتناع، كتب إلى ألفنش وتخلى له عن طليطلة وأنظارها، ليعينه على أخذ بلنسية وأقطارها، فطار إليها ألفنش بجناح، ووصل الغدو بالرواح، فحين وفاه، أخلى له البلد، وحصل فيها بالأهل والولد، بعد أن شرط عليه من فيها من المسلمين أن يؤمنهم في أنفسهم وأموالهم وبنيهم، وأن من أحب منهم الخروج لم يمنع منه،

ومن أجب المقام لم يلزمه سوى أداء الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص، وإن رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تعرض عليه لا في كثيره ولا في قليله فعهدهم على ذلك، وأعطاهم صفقة يمين وأقسم لهم أنه لا يغدر في ذلك.." (23).

وهكذا جاء ألفونسو السادس إلى طليطلة محاولا تقديم نفسه محرراً لسكانها الذين عاشوا في ظروف مضطربة. وكان مستشاره المستعرب سيسناندو دافيديث Sisnando davidiz هو الذي أرشده إلى اتخاذ سياسة الليونة وسيلة لفرض سلطته على سكان طليطلة وغيرهم من الأندلسيين بنجاح كما اقترح عليه الاعتماد على ملوك الطوائف في فرض هيمنته بدلا من محاربتهم، يقول ابن بسام :" وقد كان من رأي ششنند الإبقاء على أهل طليطلة وقال لأدفونش: " لست تجد من تعمرها ولا تظفر بعامل أطوع من ابن ذي النون يديرها ، فأبى أدفونش إلا لجاجا في سفهه، وانحطاطا في حبل شرهه. فلما تهيأ له ملكها، وانتشر في يديه سلكها، قال له ششنند : اخفض جناحك لأهلها واستجلب جاليتها بما تمد من ظلها، ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم، ولا تجد عمالا أطوع منهم فإنك إن أبيت إلا الإلحاح عليهم والتسرع بالمكروه إليهم نفرتهم عن ذراك وأحوجتهم إلى مداخلة سواك"(24).

(23) – ابن عبود، مباحث... م.س، ص : 61، نقلا عن ابن الكردبوس.

(24) – ابن بسام الشنتريني ابو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، ط 1، دار الثقافة، بيروت، 1979، القسم 4، ج 1، ص : 167– 168 .

وفعلا نجح سيسناند في تنفيذ سياسته اللينة بل إنه استطاع جلب عدد من الطليطليين إليه إلى درجة أن بعضهم اختار اعتناق الديانة المسيحية. " وولي ششنند المذكور تدبير طليطلة، فهون عليهم الرزية، وحبب إليهم إعطاء الدنية، بما أراهم من سهولة مرامه، وبسط فيهم من عدل أحكامه حتى استمال قلوب أعلامها، وحبب التنصر إلى عامة طغامها وفاجأ المسلمين من اختلاف أهوائهم وتنصر سفهائهم، ماضاقت عنه صدور الأيام واضطربت له قواعد الإسلام[25].

- **بلنسية**

لقد اتخذ الموقف نفسه السيد روديغودياث تجاه أهل بلنسية قبل احتلاله لها حيث وعدهم بتنفيذ سياسة التسامح والعدل مقابل استلام المدينة، وقد جاءت هذه الوعود في ظل الظروف الصعبة التي عاناها البلنسيون بعد الحصار الذي ضربه الكمبيادور عليها، وكان الطرف المفاوض من الجانب البلنسي ابن جحاف. والنص الموالي يؤكد استلام المدينة وأن الوعود لم تكن سوى وسيلة للسيطرة على الأمور.

"لما بلغ بأهل بلنسية الماء الزبى، وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى، ولا نصر ولا غوث، ألجأتهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار لا بحكم الاختيار، فتجمعوا إلى قاضيهم أبي المطرف ابن

---

(25) – المصدر نفسه، ص : 167

جحاف، وسفروا إلى الطاغية الكبيطور – لعنه الله – من يتوسط لهم معه أخذ الأمان .فأجاب في هذا الشأن وعقد نيته على الختر، ونقض العهد ، وأعطاه أمان مثله من الأجناس فخرج إليه القاضي وعقد عليه العقود ، وأخذ المواثيق والعهود ، وحزم في ذلك وبلغ الغاية التي ما بعدها غاية ، ولا وراءها لمجتهد نهاية فلما كمل الأمر فتحت له الأبواب ودخل المدينة بجملته ، وذلك في جمادى الأولى من هذه السنة فلم يعمل هو وأصحابه – لعنهم الله- ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال، فانتشطت الأنفس من عقال، وانبسطت الآمال وأمن الناس، وهو مع ذلك يراعي أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة وحصل –لعنه الله- على هذه الحضرة ، ورمى على ما هي عليه من النعمة والنضرة والحسن والبهجة"[26].

وإذا كانت سياسة الإسبان قد اتسمت بالليونة وإعطاء مجموعة من الضمانات لهؤلاء المدجنين فإنها سرعان ما تغيرت فتعرض هؤلاء للاضطهاد فأين تجلى هذا ؟.

[26] – ابن عذاري أبو العباس أحمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، ط 2، دار الثقافة، بيروت، 1980، ج 4، ص : 34.

2. وضعية المدجنين بطليطلة وبلنسية بعد استلام المدينتين:

- طليطلة

عانى الطليطليون الشيء الكثير عند حصار مدينتهم فحاولوا البحث عن مساندة لهم لكن دون نتيجة، ويعبر ابن بسام عن ذلك البأس بقوله : " وطفق أهل طليطلة يستصرخون من حولهم ويعملون في ذلك فعلهم وقولهم فيعكفون على طلل بائد، ويضربون في حديد بارد"[27]، ولم يكن انتظار ألفونسو السادس طويل المدى بعد احتلاله لطليطلة للبدء بتنفيذ سياسته التعسفية تجاه الأندلسيين، ومما يرمز إلى ذلك تحويل المسجد الجامع إلى كنيسة : "وشرع (ألفونسو) لوقته في تغيير المسجد الجامع بها، خاتمة النوائب، ونكبة الشاهد والغائب... فشمخ أدفونش – لعنه الله- بأنفه، وثنى من عطفه، وأصغى إلى طنانه جنونه وسخفه، وأمر بتغيير المسجد الجامع يوم (...) لربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وحدثني من شهد طواغيته تبتدره، في يوم أعمى البصائر والأبصار منظره، وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه، واعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه، وقد أطاف به مردة عفارته، وسرعان طواغيته، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ. فكلما قالوا عجل، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل ثم قام ماطاش ولا تهيب، فسجد به واقترب،

[27] – ابن بسام، الذخيرة... م. س، ص : 165.

وبكى عليه مليا وانتحب، والنصارى يعظمون شأنه، ويهابون مكانه لم تمتد إليه يد ولا عرض له بمكروه أحد"[28].

لقد كانت هذه السياسة التي نهجها ألفونسو السادس تجاه الطليطليين نابعة من طموحه العام والرئيسي والمتمثل في احتلال بلاد الأندلس بأكملها والنص الموالي يوضح ويصف شعور الأندلسيين تجاه ألفونسو أكثر ما يصف احتلاله للمدينة.

"وعتا الطاغية أدفونش – قصمه الله- لحين استقراره بطليطلة واستكبر وأخل بملوك الطوائف في الجزيرة وقصر، وأخذ يتجنى ويتعتب وطفق يتشوف إلى انتزاع سلطانهم والفراغ من شأنهم ويتسبب، ورأى أنهم قد وقفوا دون مداه، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه"[29].

بل أكثر من ذلك إن ألفونسو السادس تعامل مع المفاوضين الطليطليين قبل استلام المدينة، تعامل المتغطرس، خاصة أنه كان يعي كل الوعي موقف ضعفهم حيث استحال استمرار مقاومتهم للحصار، ثم فشلهم في الحصول على مساندة ملوك الطوائف، يقول ابن بسام :
" فخرج من أعيانهم جملة إلى مضرب أدفونش في بعض تلك الأيام، وقد ضاق المجال وتلفظت الآجال، وأقبلت الحتوف تختال، فقام الحجاب

[28] – ابن بسام، الذخيرة... م. س،ص : 168.
[29] – نفسه ،ص : 167

دونه فقالوا : هو نائم فكيف توقظونه؟ فعدلوا إلى مضرب ششنند... فأدخل على أدفونش يومئذ منهم فوجده يمسح الكرى من عينيه ، ثائر الرأس، خبيث النفس، وجعلوا ينظرون إليه وهو يضغث ثغامة رأسه، فما نسوا دفر أطماره، ودرن أظفاره ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه، ولحظ لا يشكون أن الشر فيه، وقال لهم: إلى متى تتخادعون، وبأي شيء تطمعون؟ قالوا: بنا بغية (ولنا) في فلان وفلان أمنية، وسموا له بعض ملوك الطوائف ، فصفق بيده، وتهافت حتى فحص برجليه، ثم قال: أين رسل ابن عباد؟ فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة، وينسبون بألسنة السمع والطاعة فقال لهم : مذكم تحومون علي، وترمون الوصول إلي؟ ومتى عهدكم بفلان. وأين ما جئتم به لا كنتم ولا كان؟ فجاءوا بجملة ميرة، وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة، ثم ما زاد على أن ركل ذلك برجليه، وأمر بانتهابه كله، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله، كانت حاله حال من كان قبله، وجعل أعلاجه يدفعون في ظهورهم، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم، ومصيرهم، فخرج مشيختها من عنده وقد سقط في أيديهم، وطمع كل شيء فيهم، وخلوا بينه وبين البلد، ثلاثة أيام من ذلك المشهد، ودخل طليطلة على حكمه، وأثبت في عرضتها قدم ظلمه، حكم من الله سبق به القدر فلم يكن منه وزر"[30].

[30] – ابن بسام، الذخيرة... م. س،ص : 165 – 167.

- بلنسية

كذلك عانى البلنسيون خلال الحصار الطويل الذي ضربه السيد على مدينتهم كثيرا سواء على المستوى الجسدي كمعاناة الجوع والتعذيب والقتل، أم على المستوى النفسي حيث غلب عليهم اليأس والخوف على مصيرهم لما شاهدوا من حولهم من أوضاع صعبة للغاية ومما زاد من تأزيم وضعيتهم ارتفاع الأسعار حيث استحال على الغالبية العظمى منهم الحصول على أبسط الأشياء ويعبر ابن عذاري عن الوضعية بقوله : " ومما امتحن به أهل بلنسية في هذه السنة المؤرخة الغلاء، قال محمد ابن علقمة : بلغ رطل القمح في ربيع الاول بمثقال ونصف، ورطل الشعير بمثقال، ورطل زريعة الكتان بستة أثمان مثقال، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم، وأوقية البصل بدرهم ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ورطل الجلد البقري بخمسة دراهم... [31].

والنص الموالي يعبر عن الوضعية النفسية المضطربة والمأساة التي عاشتها بلنسية خلال حصار الكمبيادور لها.

"وفي سنة 487 هـ لما انصرف جيش الأمير أبي بكر بن إبراهيم اللمتوني بحكم القدر السابق عن بلنسية أيقن من فيها بالهلكة وغلب الناس اليأس، وضاقت النفوس وزاد حقد العدو، وقسا قلبه، وهلك أكثر الناس جوعا، وأكلت الجلود والدواب وغير

---

[31] – ابن عذاري، البيان المغرب، م.س، ج 4، ص : 38.

ذلك ومن فر إلى المحلة فقئت عيناه أو قطعت يداه أو دقت ساقاه أو قتل، فرضي الناس بالموت في المدينة، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافا لانقسام مدة الحصار وتضاعف حقد العدو لصبرهم وطلبهم النصرة"[32].

ولم ينج النساء والأطفال من الإرهاب الذي مارسه السيد على السكان البلنسيين مما يعكس عدم التفريق بين العسكريين والمدنيين في المعاملة.

"وعمد اللعين عند نزول المحلات عليه، إلى الضعفة من النساء والولدان من المسلمين فأزعجهم إلى المحلة وقال: ألحقوا بملتكم! فوقعن إلى أيدي السودان وخدمة الدواب والشغلة من الباعة فغلبوا عليهن وفسقوا بهن، ولم يرفع ذلك إلى صاحب الجيش فيقع التغيير والنهي عن المنكر"[33].

ولعل أبشع عملية تعذيب قام بها السيد هي إحراقه لقائد المقاومة القاضي ابن جحاف علانية مظهرا بذلك قساوته وطغيانه، ويصور ابن عذاري هذه المجزرة قائلا: "ولما تمهدت بلنسية للكبيطور - لعنه الله - بدا بثقاف قاضيها ابن جحاف وثقاف أهله وقرابته، فغنمهم الثقاف، وبلغتهم المحنة، وجعل يطالبهم بمال حفيد ابن ذي النون، ولم يزل يستخرج ما عنده حتى استصفى أموالهم واستنفذ

(32) – نفسه، ص: 33.

(33) – نفسه، ص: 35.

أحوالهم، فلما لم يترك لهم ظاهرا ولا باطنا، أمر بإضرام النار، وسيق القاضي أبو المطرف، يرسف في قيوده وأهله وبنوه حوله وقد حشر الناس من المسلمين والروم ثم قال لهم : ما جزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم؟ فصمتوا، فقال لهم : جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! " وأمر به ويحمله إلى ذلك الضرم، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة، فضج المسلمون والروم، وتضرعوا إليه في ترك الأطفال والعيال، إذ لا ذنب لهم، ولا علم بتلك الأمور عندهم، فأسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة، وترك النساء والصبية، وحفر للقاضي حفرة، وأدخل فيها إلى حجرته، وسوى التراب حوله، وضمت النار إليه فلما دنت منه، ولفحت وجهه وقال : بسم الله الرحمان الرحيم، ثم ضمها إلى جسده فاحترق – رحمه الله تعالى".[34]

أخيرا نخلص إلى أن هذه المقارنة البسيطة، والتي رغم اقتصارنا فيها على نماذج معينة (طليطلة وبلنسية) وفي الفترة الأولى لبداية حركة الاسترداد المسيحي، بين وضعية المدجنين والموريسكيين بعد سنة 1492م، تشير إلى تشابه شديد شكلا ومضمونا بين الوضعيتين، رغم وجود بعض الاختلافات الطفيفة من بينها كون المدجنين لم يخضعوا لمحاكم التفتيش ثم إن نسبة تنصيرهم كانت قليلة بالمقارنة مع الموريسكيين.

---

[34] – ابن عذاري، البيان المغرب، م.س، ج 4، ص : 38– 37.

الباب الأول : الهجرة الأندلسية وبواعثها

الفصل الأول : عوامل الهجرة

ساهمت عدة عوامل في عملية الهجرة الأندلسية إلى المغرب فمنها السياسي والديني والاقتصادي والاجتماعي، كما أن هذه الأسباب مرتبطة أيضا بوضعية كل من إسبانيا والعالم الإسلامي عموما والمغرب على وجه التخصيص.

1. العامل السياسي

أ. إسبانيا

مرت مملكة قشتالة وأراغون بفترات عصيبة اتسمت بالنزاعات والحروب الأهلية والتنافس على العرش، وإن كانت هذه الفترات لا تخلو من وجود ملوك كبار استمروا في تنفيذ حربهم الاستردادية بمهاجمة الأراضي والحصون الإسلامية في الجنوب، وقد شكل زواج فرناندو الأراغوني من ابنة عمه إسابيلا القشتالية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبالضبط سنة 874هـ/ 1469م، أبرز العوامل لتجاوز هذه الخلافات وتحقيق الوحدة الإسبانية.

صحيح أن هنري الرابع كان يعارض زواج أخته من فرناندو ابن خوان الثاني ملك أراغون، خاصة بعد وجود عدة منافسين له، والذين تقدموا هم أيضا لطلب الزواج منها، إلا أن إسابيلا ولبُعد نظرها

والإمعان في الأمر فضلت أخيرا الزواج بابن عمها وفي سرية تامة، فتم عقد الزواج في أكتوبر 1469 في مدينة بلد الوليد ، حيث كانت تقيم الأميرة في حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء الأوفياء[35].

ونظرا لمعارضة أخيها لهذا الزواج فقد تعهد فرناندو بمجموعة من الشروط أهمها احترام قوانين قشتالة وتقاليدها، وذلك بأن يجعل مقر إقامته فيها، وألا يغادرها دون إذنها وألا يجري أي قرارات أو تغييرات في المملكة دون الاستشارة مع إسابيلا، كما تعهد بالأخص أن يتابع الحرب ضد المسلمين ويعتبر هذا الشرط الأخير الشرط الأساسي لهذا الزواج.

وبعد سنوات قليلة من زواجهما اعتلت إسابيلا عرش قشتالة بعد موت أخيها هنري الرابع سنة 1474، بالرغم من المعارضة التي لقيتها من قبل منافستها على الحكم الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى، لكن تمسك إسابيلا بحقها في العرش باعتبارها أحق بهذا المنصب لكون الابنة كان يشك في صحة نسبتها إلى هنري[36]، وقد تم الاتفاق أخيرا على مزاولة الحكم بطريقة مشتركة تبقى فيه كل الصلاحيات لإسابيلا بصفتها ملكة أصلية لقشتالة.

ومع ذلك ظل خصوم إسابيلا يؤيدون تنصيب خوانا ملكة على قشتالة، على رأسهم ملك البرتغال ألفونسو الخامس لكونها ابنة أخته،

---

[35] – عنان عبد الله محمد، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع) ، ط 4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987، ص : 182.

[36] – المرجع نفسه، ص : 180.

بل إنه قام بغزو قشتالة سنة 1475، إلا أن صمود الجيش القشتالي جعله يعود أدراجه.

هكذا انتصر فرناند وإسابيلا على خصومهما واستقرا معا على عرش قشتالة، ثم في سنة 1479 م اعتلى فرناند عرش أراغون بعد موت أبيه، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان في ظل عرش واحد واجتمعت كلمة إسبانيا النصرانية بعد أن فرقت بينهما النزاعات والخلافات، ودشنت إسبانيا في ظل حكمهما عصرا من القوة والعظمة، بفضل دهاء هذين الملكين ثم تعصبهما لنصرانيتهم، وقد كان مشروع غزو غرناطة الأندلسية أشنع ضروب هذا التعصب.

ب. غرناطة

قامت مملكة غرناطة سنة 635 هـ/ 1238 م على إثر انهيار حكم الموحدين بالأندلس حيث استطاع محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر أن يقيم دولة امتدت رقعتها من جيان شمالا إلى الجزيرة الخضراء جنوبا، وقد استغل حالة الفوضى التي سادت الأندلس في تلك الفترة لتقوية حكمه في غرناطة والوقوف أمام الأطماع الإسبانية، وبعد وفاته استطاع خلفاؤه من بني نصر الاحتفاظ بهذه المملكة مدى قرنين ونصف من الزمن وسط أخطار عديدة كانت تحدق بهم، وتمثلت في النزاعات الداخلية ثم التوسع الإسباني واشتداد حركة الاسترداد على حسابها.

وقد تمكنت هذه المملكة الصغيرة أن تقف شوكة في حلق الدول النصرانية واستطاعت أن تؤخر سقوط الوجود الإسلامي بالأندلس إلى غاية 898هـ/ 1492م لذلك لاحظ الملكان الكاثوليكيان أن الوجود الإسلامي بهذه المملكة يعرقل استكمال وحدتهما، فعزما على القضاء عليها، فأصبحت بذلك هدفا لعدوان مملكة قشتالة وأراغون.

وفي الوقت الذي جلس فيه فرناند وإسابيلا على عرش إسبانيا الموحدة بدأ الخلاف يدب في صفوف البيت النَصْري الحاكم، وقد كان للنساء أثر بارز في إذكاء هذا الخلاف والتعجيل بسقوط غرناطة، فقد اقترن أبو الحسن في أواخر أيامه بفتاة نصرانية من عائلة نبيلة تدعى إسابيل دوسوليس[37] اعتنقت الإسلام فتسمت بثريا، والتي كان يفضلها على زوجته الأولى عائشة (تعرف بالحرة أيضا)، وبفضل جمالها ودهائها استطاعت ثريا أن تجعل الملك أبا الحسن ألعوبة في يدها، فكانت تطمح أن يكون المُلك في يد ابنها الأكبر بدلا من أبي عبد الله الصغير ولد عائشة فعملت على تحريض الملك على الصغير وأمه. وسرعان ما بدأ الصراع بين الزوجتين[38] وأخذت كل منهما تجمع الأنصار حولها، فانشق بذلك المجتمع

---

[37] – عنان عبد الله، نهاية الأندلس...م. س، ص : 198.

[38] – المؤرخ المجهول، أخبار العصر في القضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس، ط 1، مطابع الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1991، ص: 79.

الغرناطي إلى فريقين فريق يؤيد الملكة الشرعية وولديها وفريق يؤيد السلطان وحظيته، فكانت الغلبة للفريق الأخير لفترة معينة. أصبح الصراع مكشوفا حينما قام السلطان بسجن عائشة وابنيها، إلا أنها لاذت بالفرار هي وأبناؤها[39]، واختفوا عن الأنظار لوقت قصير حتى تقوت شوكتهم ثم ظهر الأمير أبو عبد الله محمد في وادي آش وهو يتزعم أنصاره في ثورة على والده أبي الحسن وأمام عدم قدرة هذا الوالد على مواجهة قوات ابنه فر إلى مالقة عند أخيه الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل أي الباسل والشجاع.

وفي هذه الآونة التي أخذت فيها الفُرقة تمزق أوصال المملكة الإسلامية الصغيرة بدأت إسبانيا في تنفيذ مخططاتها التي كانت تحلم بها، فوجدت الفرصة ذهبية فكانت البداية بإهانة غرناطة وإجبارها على أن تكون تابعة لمملكة قشتالة وأن تعترف بها وتؤدي لها الجزية[40] فرفضت ذلك مما أدى بفرناندو إلى مهاجمة أراضيها والاستيلاء على الحامة الواقعة في الجنوب الغربي من غرناطة كما تمكن القشتاليون من الزحف على مدينة لوشة شمال غرب الحامة ومحاصرتها، إلا أنهم لم يتمكنوا منها بسبب وجود حامية عسكرية كبدتهم خسائر فادحة.

---

(39) – نفسه، ص : 83– 84 .

(40) – دنون عبد الواحد طه، دراسات... م. س، ص : 192 .

سبق أن أشرنا إلى فشل أبي الحسن في مواجهة ابنه[41] مما أدى بأبي عبد الله إلى الاستقلال بحكم غرناطة في حين استقر الأب في مالقة وضواحيها واعتزم أبو عبد الله على مواجهة النصارى فقاد حملة وتمكن في طريقه من الاستيلاء على مجموعة من الحصون والقلاع وهزم النصارى في معارك محلية حصل خلالها على غنائم كثيرة إلا أن النصارى تمكنوا من هزمه بحصن اللسانة[42] جنوب شرق قرطبة فهُزم جيشه وتمكنوا من أسر العديد من رجاله وكان هو من ضمن الأسرى فتولى عمه محمد بن سعد الزغل الحكم في غرناطة.

استغل الملكان الكاثوليكيان وجود أبي عبد الله أسيرا لديهما لتحقيق مآربهما والاستيلاء على غرناطة فاشترطا مجموعة من الشروط على أبي عبد الله مقابل إطلاق سراحه[43] وهي الشروط التي مكنتهما في حقيقة الأمر من تنفيذ سياستهما الهادفة إلى القضاء على نفوذ المسلمين في غرناطة، خاصة أن هذا الأمير كان ضعيف الإرادة وهمه الوحيد الرجوع إلى عرشه.

---

[41] – تُسَمّي المصادر الإسبانية أبا عبد الله بـ: باوبديل Baobdel

[42] – مجهول، أخبار العصر... م. س، ص: 85 – 86 .

[43] – حومد أسعد، محنة العرب في الأندلس، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1400/1980، ص: 86.

وتجدد الصراع مرة أخرى بين الأب وابنه، الذي كان مجبرا على تطبيق العهود والمواثيق التي التزم بها لإسبانيا، فسار إلى غرناطة وحاولت والدته تسهيل أمر إدخاله إلى حي البيازين، لكنه اضطر بعد أن حارب أباه إلى الانسحاب إلى المرية التي اتخذها قاعدة له ومنها شرع في مهاجمة المناطق الخاضعة لأبيه ومن جهتها استغلت القيادة الإسبانية فرصة النزاعات القائمة بين أفراد البيت النصري لتقوم بالزحف على مجموعة من الحصون والقواعد وانتزاعها تمهيدا لإضعاف غرناطة. فتمكنت من الاستيلاء على أزيد من 300 حصن[44]، وهكذا سقطت سائر الأماكن والقلاع وتمهد الطريق لمهاجمة ثغر مالقة من جهة الغرب.

وتوالت الخلافات بين أبي عبد الله ووالده إلى أن استسلم الوالد لأخيه فبدأ الصراع بين أبي عبد الله وعمه ،ولما أنهكت قواهما تدخل الفقهاء لإيجاد تفاهم بين الجانبين فتم تقسيم حكم المملكة بين الإثنين، وقبل الزغل بالقسمة حتى يتسنى له الاستمرار في مهاجمة النصارى إلا أن تواطؤ الصغير معهم حال دون ذلك. وكان لمالقة ولغيرها من المرافئ الجنوبية أهمية عظيمة كان يدركها القشتاليون فقد كانت هذه المرافئ تشكل مركز الاتصال بين الأندلس وشمال إفريقيا، ومنها كان يأتي المدد دوما إلى العرب المسلمين، سواء في عهد المرابطين أم الموحدين فيما مضى أم في عهد

---

[44] – حومد أسعد، محنة العرب... م.س، ص : 87.

المرينيين، فكانت الظرفية السياسية تفرض عليهم الاستيلاء على هذه المراكز حتى يتم قطع أي اتصال مع الخارج ويتم عزل غرناطة والمدن الداخلية في انتظار توجيه الضربة القاضية لها لإنهاء الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية.

استمر النصارى في استغلال الخلافات والفتن في غرناطة بين أنصار أبي عبد الله الصغير وعمه محمد الزغل، فهاجموا مدينة لوشة للمرة الثانية واستطاعوا أن يستولوا عليها 891/ 1486 فهاجر أهلها إلى مدينة غرناطة[45]، وسارعت الجيوش القشتالية في اتجاه الحصون المحيطة بغرناطة لاحتلالها فتمكنت من ذلك وأخرجت أهلها ثم شحنتها بالرجال والعتاد والمؤن والسلاح لتؤدي دورها في التضييق على غرناطة[46]، وخلال هاته المعارك تم أسر أبي عبد الله مرة ثانية مما أدى به إلى تسليم المدينة مقابل اتفاقيتين إحداهما علنية وأخرى سرية[47]، وهذا ما زاد من أطماع الملكين في ما تبقى في حوزة المسلمين.

وبعد عقد هذه الاتفاقيات مع أبي عبد الله تم التركيز على المناطق التي كانت خاضعة لعمه الزغل (مالقة، والمنكب، وبسطة،

---

[45] – مجهول، اخبار العصر... م.س ، ص : 91.

[46] – المقري ابو العباس احمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، 1988، ج 4 ص : 515 – 516 .

[47] – حومه أسعد، م.س، ص : 88.

ووادي آش، والقرية وألمريا)، نظرا لأهميتها فسقطت الواحدة تلو الأخرى بعد دفاع مستميت من قبل أهلها، ولم يكن دفاع هؤلاء مجديا لكون النصارى يفوقونهم عدة وعددا، دون أن تأتيهم مساعدة من باقي المدن وخاصة غرناطة التي التزم صاحبها بعدم التدخل في شؤون المناطق التي لا تخضع له لذلك لم يظهر أي اهتمام لما يجري لإخوانه.

استسلمت هذه المناطق مقابل التزام النصارى بمجموعة من الشروط تضمن لهم كرامتهم، لكن العدو سرعان ما نقضها فصلا فصلا، واعتبر المسلمين عبيدا يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم، وعتا فيها فسادا، وسبوا النساء والأطفال كما جرى في مالقة على سبيل المثال[48].

وبعد الاستيلاء على هذه المناطق لم يبق للنصارى سوى توجيه الضربة النهائية إلى مدينة غرناطة، فأرسل الملكان إلى الصغير رسلا لتسليم غرناطة وتطبيق بنود الاتفاقية السرية التي عقدت بين الطرفين مقابل إطلاق سراحه من الأسر، وطلب من هذا النوع يعني نهاية المملكة مما أثار غضب الزعماء والفقهاء فقرروا القتال حتى النهاية دفاعا عن مملكتهم ودينهم وحضارتهم، وعندها صمم الملكان الاستيلاء على المدينة بالقوة فخرجا إلى مرج غرناطة وبدءا بإفساد زروعها[49].

---

(48) – المقري، نفح الطيب، ج 4، ص : 520 – 521 – أخبار العصر، م.س. ص : 97-98.

(49) – نفسه، ج 4 ص : 524، أخبار العصر، م. س، ص : 110.

واستمر الحال ما يناهز سبعة أشهر أظهرت خلالها غرناطة كل ضروب الشجاعة والصبر حيث كان جنود المسلمين يخرجون خارج الأسوار في غارات خاطفة تكبد فيها العدو خسائر كبيرة إلا أن طول الحصار أخذ يؤثر على صمود وقوة المسلمين ومعنويتهم فلم يجدوا بدا من المفاوضة مع العدو من أجل الاستسلام. يقول صاحب "أخبار العصر"[50] : "وما زال حال البلد يضعف ويقل من الطعام والرجال إلى أن دخل شهر المحرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ودخل فصل الشتاء والثلج نازل بالجبل وقطع الطريق من البشرة، فقل الطعام عند ذلك في أسواق غرناطة واشتد الغلاء وأدرك الجوع كثيرا من الناس وكثر السؤال والعدو ساكن في بلده ومحلته... فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والأمناء والأشياخ والعرفاء ومن بقي من أنجاد الفرسان، ومن له نظر بغرناطة وساروا إلى أميرهم محمد بن علي فأعلموه بحال الناس وما هم عليه من ضعف وشدة الجوع وقلة الطعام... فقال الأمير محمد : انظروا ما يظهر لكم وما تتفقون عليه من الرأي الذي فيه صلاحكم، فاتفق رأي الجميع من خاصة وعامة أن يبعثوا لملك الروم من يتكلم معه في أمرهم وأمر بلادهم، ... فلما بعثوا لملك الروم بذلك وجدوه راغبا فيه فأنعم لهم بجميع ما طلبوا منه وما شرطوا عليه".

---

[50] – مجهول ، م.س، ص : 112 – 114 .

إن المتمعن في بنود معاهدة تسليم غرناطة[51]، يلاحظ أن الملكين الكاثوليكين كانا يرغبان في إنهاء الحرب – التي انهكت خزينتهم – وتسلم مفاتيح المدينة ولو مقابل تنازلات كبيرة علما منهما أن كثيرا من الضمانات التي تعهدوا بها لن تجد طريقها إلى التنفيد، فلم تكن بنود المعاهدة سوى ستارٍ للغدر والخيانة.

سقطت إذن غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في بلاد الأندلس بسبب تشتت كلمة المسلمين وتفرق صفهم وانشغالهم بالحروب ثم الاستعانة بالعدو الماكر على بعضهم البعض، فانتهى بذلك الوجود الإسلامي الفعلي بهاته البقاع بموجب اتفاقية التسليم، ويصف لنا مارمول كربخال مرحلة تسليم غرناطة بقوله: "... دخل النصارى إلى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، ولما استخلصوا لأنفسهم مجموع مرافقه، صعد الكاردنال إلى أحد الأبراج بالقصر ونصب فوقه صليبا كبيرا من فضة ولواء الملكية المسيحية... وما أن أبصرت الملكة الصليب منصوبا فوق قصر الحمراء حتى انحنت نحو الأرض، واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية

---

(51) – أورد مجموعة من الدارسين بنود هذه الاتفاقية التي تضمنت 56 بندا نقلا عن مصادر إسبانية انظر، عنان، نهاية الأندلس م.س. ص : 245– 250، عبد الله محمد جمال الدين ، المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون، ط 1، دار الصحوة للنشر القاهرة، 1991، ص : 22– 32 ، انظر أيضا لي هنري تشارلس، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ترجمة حسن سعيد الكرمي، ط 1 ، دار لبنان للطباعة والنشر بيروت، 1988 ص : 32 – 38 حيث اورد 48 بندا فقط.

عند ذلك بدأ فرناندو وبعض علية القوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوها تقدم نحوه أبو عبد الله ممتطيا جواده ولما دنا من فرناندو وتهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني، لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل، شفقة عليه، فقبل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فيرناندو اليمنى وقدم إليه مفاتيح القصر فتناولها الملك النصراني وسلمها إلى الكونت تنديلا الذي أصبح أول حاكم نصراني على غرناطة..." (52).

التزم الإسبان في السنوات الأولى التي تلت سيطرتهم على غرناطة وخاصة الثلاث سنوات الأولى، فالتزموا إلى حد ما ببنود الاتفاقية، حيث كانوا يحترمون دين المسلمين وعاداتهم دون منعهم من التمسك بها وبممارستها ولم يسمع باضطهادهم، ولا بإيذائهم خاصة بعد قسم الملكين بأن يكون للعرب والمسلمين الحرية التامة في العمل في أراضيهم وفي التنقل أنى شاؤوا وإلى أي مكان أرادوا داخل المملكة وعلى أن تصان مساجدهم وأن يحافظوا على شعائرهم ومناسكهم وعلى أن يسمح لمن يرغب في الجلاء ببيع ما يملك والسفر حيث شاء وحتى يبرهن فرناندو على حسن نيته استقبل عدداً من المسلمين الذين طردهم ملك البرتغال مانويل Manoel ، بعد رفضهم التعميد الإجباري، فأصدر في904هـ/ 20 أبريل 1498م عهود

(52) – كربخال مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر، ومحمد الأخضر، وأحمد توفيق، وأحمد بن جلون، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ج1، ص: 446- 447.

ملكية تسمح بدخولهم الأندلس ومعهم جميع أموالهم المنقولة ثم الاستقرار والاستيطان فيها أو العبور منها إلى بلاد أخرى[53].

مثلت هذه السياسة التي سار عليها الإسبان الهدف الأساسي لتحقيق الوحدة بإدماج السكان الذين غلبوا على أمرهم من العرب والمسلمين بسكان الدولة الآخرين مع تحقيق المساواة بين الجميع من حيث المكانة والاعتبار، بل في بعض الأحيان يحظى المسلمون بامتيازات أكثر، في انتظار حدوث الامتزاج الكلي في المستقبل في كتلة واحدة تدين بدين واحد وبالولاء لبلد واحد.

لكن في السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، أدرك مسلمو غرناطة وبقية إسبانيا، أنه خلافا لما قطع لهم من الوعود عام 897 هـ/ 1492 م لم يكن يسمح لهم أن يعيشوا بسلام بوصفهم رعايا مسلمين في مملكة كاثوليكية. كانت إذن أوضاع الأندلس متردية في هذه الفترة فماذا إذن عن وضعية العالم الإسلامي ؟.

ج. العالم الإسلامي

ساهمت أوضاع المسلمين في بقية العالم الإسلامي في ازدياد تدهور وضعية المسلمين بالأندلس، ففي المغرب مثلا كان الصراع على أشده بين بني وطاس والسعديين كما أن إسبانيا كانت لها

---

[53] – لي هنري تشالس، العرب والمسلمون...، م.س، ص : 43.

اتفاقية مع الوطاسيين سنة 945/ 1538 م[54]، زد على ذلك تحكم الإسبان والبرتغال في السواحل المغربية، كل ذلك جعل من الصعب على المغاربة إنقاذ إخوانهم الأندلسيين، وحتى بعد تحقيق المغرب لوحدته الترابية، حالت ظروف مستجدة دون تقديم يد المساعدة لهم وأهمها السيطرة التركية على الجزائر.

أما بقية العالم الإسلامي خاصة في الشمال الإفريقي الذي تراجع هو الآخر، فكان على الأندلسيين الانتظار حتى مجيء العثمانيين، لذلك اتجهوا شرقا إلى دولة المماليك بمصر التي كانت على دراية بأوضاعهم، ولم يحاول أهل الأندلس الحصول على دعم عسكري بل كان همهم الوحيد هو توسط المماليك دبلوماسيا لدى الإسبان والتهديد بمعاملة المسيحيين في بيت المقدس – باعتباره خاضعا لهم – بنفس المعاملة التي يعامل بها الإسبان المسلمين في الأندلس[55]، وأمام تزايد الاتصالات بين المسلمين ولتفادي حدوث أي تعاون بين الجانبين قامت إسبانيا من جهتها بإرسال مبعوثها الخاص بدْرُو مارتر، للحيلولة دون إلحاق أي أذى بالمسيحيين[56]، وقد حاول

---

[54] – عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون...، م.س، ص : 43–44.

[55] – هارفي ليوناردو باتريك، تاريخ المورسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، ضمن أعمال الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998 ، ج 1، ص : 322 – 323.

[56] – سالم عبد العزيز ، علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها، م.ع. 5. د. م. منشورات، م. د. ب. ع. م. زغوان، 1993 ج 2 ، ص : 114.

هذا المبعوث إضفاء طابع الشرعية على الأعمال التي تقوم بها إسبانيا في حق الموريسكيين بإعطاء مبررات واهية من قبيل أن للإسبان الحق في استعادة أرضهم التي كانت ذات يوم مسيحية بيد القوط، أو القول بأن الموريسكيين اختاروا التنصير بمحض إرادتهم... فاستطاع بذلك بدْرُو مارتر إقناع المماليك بعدم جعل المسيحيين بالمشرق رهائن لمسلمي إسبانيا بل تمكن من إجبار المماليك على إسقاط المغارم والفروض عليهم، وذلك بأسلوب الترغيب تارة والترهيب أخرى وبطريقة غير مباشرة[57]. وبعد موقف المماليك السلبي عقد الموريسكيون آمالهم على العثمانيين خاصة بعد النجاح الذي حققوه في شمال إفريقيا من انتصارات على الإسبان بقيادة خير الدين الذي لقي استحسانا كبيرا من لدن مسلمي الأندلس فقد جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 948 هـ/ 1541م ، ما يلي : "... وقد كان يُجَوِّز لنا الوزير المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمع أهل الإسلام على طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضمائر وانتظم الشرع والأمان في البادي والحاضر فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام وتحت

---

[57] – هارفي ليونارد باتريك، م،س، ص : 324.

إيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان..."[58].

استمرت آمال الأندلسيين متعلقة بالسلطة العثمانية، فتواصلت المراسلات بين الطرفين ومن الجانب الأندلسي أكثر وتضمنت هذه الرسائل قصائد[59] تصف أوضاعهم المزرية والاضطهاد الذي لقوه من قبل الإسبان، ومن جهتها قدمت الحكومة العثمانية مجموعة من المساعدات للأندلس فمن خلال الدراسة التي قام بها بعض الأجانب، وصل في غشت 977هـ/ 1569م، 400 رجل تركي بقيادة الحسين، وفي ربيع عام 1570 كان يوجد حوالي 4000 تركي وبربري بين 25000 مقاتل ضمن مساعدة أخرى وصلت في يونيو تم ضبطها وكشفها في الوقت المناسب[60]، ورغم ذلك ظلت هذه المساعدات غير كافية، ويرجع هذا إلى كون العثمانيين كانوا منشغلين بفتح قبرص ثم بالمناوشات الواقعة بينهم وبين روسيا المجاورة، وقد زاد الطين بلة هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانتي أمام البحرية الإسبانية 987 هـ/ 1579[61]، وهذا ما جعل

---

(58) – رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 – 17، إفريقيا الشرق، البيضاء، 1991، ص: 85- 86 نقلا عن مقال لعبد الجليل التميمي.

(59) – المقري أبو العباس، أزهار الرياض في أخبار عياض، الرباط، 1978 – 1979، ج 1، ص: 109- 115.

(60) – دومنقير الطوليو، هونز وبرنارد بنشت، تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون: حياة ... ومأساة أقلية، ترجمة عبد العالي صالح طه، ضبط محي الدين الأصفر، ط 1، دار الإشراق للطباعة والنشر، الدوحة، 1977، ص: 60.

(61) – Braudel. F, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II; 4 Ed Armand. Colin Paris 1979, T. II p : 394-395

الدولة العثمانية تدخل في هدنة غير معلنة مع فليب الثاني، وبالتالي تتخلى عن الجهة الغربية للمتوسط وبهذا تبخر حلم الأندلسيين .

بعد معرفة ظروفهم السياسية يحق لنا أن نتساءل عن واقعهم الاقتصادي؟.

2. العامل الاقتصادي

اتسمت سياسة الملكين الكاثوليكيين بالليونة في السنوات الأولى لسقوط غرناطة فكان من نتائجها أن رغب الناس في عدم الهجرة، فاستمروا في ممارسة أعمالهم وحرفهم " ووضع (فرناندو) عنهم المغارم، حيلة منه وكيدا، ليغريهم بذلك ويثبطهم عن الجواز، فوقع الطمع لكثير من الناس، وظنوا أن ذلك البرق ليس يخلب، فاشترى كثير من المقيمين الرباع العظيمة، ممن أراد الذهاب للعدوة بأرخص الأثمان..."(62)

لم تكن هذه العهود والمواثيق لتقف أمام تحقيق فرناندو وإسابيلا لوحدة إسبانيا القومية، خاصة لما عرف عن هذا الملك من نقض للعهود والالتزامات، فبدأ في تغيير سياسته تُجاه هؤلاء وذلك

انظر أيضا :

Goss Philipe, Histoire de la piraterie ; Traduit de l'Anglais par P.Teillac , Payot ‹Paris 1952 p: 56-57.

(62) – المقري، أزهار الرياض، ج 1، ص : 78

بإصدار مجموعة من المراسيم تحد من حرياتهم وتفرض عليهم مغارم جديدة. يقول صاحب "أخبار العصر": "... واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم"[63] أو مصادرة أراضيهم وممتلكاتهم، ففي سنة 979 هـ/ 1571 تمكن المسلمون من إقناع محاكم التفتيش في شخصية اسبنوزا بإعفاء أراضيهم وممتلكاتهم من المصادرة مقابل دفعهم لمبلغ خمسين ألف سولدي أو 25 ألف دوكاد ذهبية[64].

تمادت السياسة الإسبانية في فرض العديد من المغارم كان الهدف منها استنزاف الثروة المورسكية وتفقير هؤلاء خاصة لما عرف عن هؤلاء من كد وحرص على جمع الثروة، فإذا قمنا بإلقاء نظرة على الضرائب التي فرضت عليهم نجدها كبيرة ومتنوعة، وقد كان على المورسكيين الخضوع لهذا الكم الضرائبي حتى يتسنى لهم الحفاظ على هويتهم، حيث إن جل هذه الغرامات كانت تؤدى مقابل إلغاء مراسيم معينة تمس هويتهم وشخصيتهم الإسلامية، فالمورسكيون وحدهم كان يطبق عليهم نظام ضريبي معقد هو نظام الفرضة Farda ذو العناصر الأربعة، الثلاثة الأولى تسمى الفرضة الكبرى وتتضمن ضريبة عادية مقدارها 21 ألف دوكا[65]،

---

[63] – أخبار العصر، م. س، ص: 118.

[64] – لي تشارلس، العرب والمسلمون... م. س، ص: 131.

[65] – نفسه، ص: 211.

وأخرى غير عادية قدرها خمسة آلاف وعشرة آلاف أخرى تخصص لنفقات القصر الملكي، أما الفرضة الأقل أو فرضة البحر فيدفعها المسيحيون القدماء والموريسكيون وتخصص للإنفاق منها على جنود حراسة الشواطئ[66].

كما أدى الموريسكيون ضريبة بلغت 150.000 دوكا ذهبية مقابل عدم تنفيذ المرسوم الذي أصدره كارلوس الخامس في 1526، والذي يقضي بمنع اللغة، والملابس، والعادات الإسلامية[67].

لقد قدم الموريسكيون إعانات مالية كبيرة للخزينة الملكية ضمنت لهم البقاء في مأمن عن محاكم التفتيش لفترات من الزمن، ففي سنة 1525 مثلا دفع موريسكيو بلنسية 50 ألف دوكا. وقد حظيت هذه الصفقة بقبول الكاردينال مطران وكاردينال إشبيلية ورئيس محكمة التفتيش[68]. وتدل هذه السياسة على جشع الحكومة الإسبانية التي كانت في عوز دائم إلى السيولة النقدية، مما جعل الموريسكيين يلجأون في كثير من الأحيان إلى تزوير النقود كما هو الحال بالنسبة لموريسكيي هوناتشوس[69].

---

(66) – محمد عبد الله جمال الدين، المسلمون المنصرون... م،س، ص : 49.

(67)-Louis Viardot, Histoire des Arabes et des mores d'Espâgne ‹édition Paris Pagnerre 1851 - T. 1 p : 371

(68) – هارفي ليوناردو، تاريخ الموريسكين... م.س، ص : 342.

(69) - Caillé. J, La ville de Rabat jusqu'au protectorat français ‹éditions d'art et d'histoire - Paris p : 213

وإذا كانت لهذه السياسة إيجابياتها على خزينة الدولة فإنها انعكست سلبا من الناحية الدينية، فقد ساهمت في إخفاق عمليات التنصير التي كان أهم شعار رفعته إسبانيا لتحرير البلاد من "الهرطقة". ويصف لنا المبعوث البندقي نافيخيرو Navigero الوضع الذي كان سنة 933هـ/ 1526 م بعد ثورة الإخوة Germania بقوله إن عناية أولئك المتنصرين بالدين المسيحي كانت قليلة جدا، وكان غرض رجال الدين الأعظم هو جمع المال وهذا ما جعل العرب والمسلمين يبقون على إسلامهم أو دون دين[70]، بل إن كثيراً من المحققين لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم، فكانت بذلك أحكام الغرامات والمصادرات أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقُضاته وتتعمت الخزينة الملكية ذاتها بمئات الألوف من هذه الموارد.

ولم تكتف سياسة النصارى بعمليات المصادرة وفرض الغرامات بل أصبحت ترى في طرد الموريسكي أفضل حل لتحقيق المزيد من الثراء والحصول على موارد أكثر أهمية، فأصبح بذلك قرار الطرد حجة تذرعت بها الحكومة الإسبانية باعتبار أن هذا القرار هو الكفيل بإنقاذها من الأزمة المالية التي تتخبط فيها الدولة و تمكينها من تسديد ديونها الهائلة التي كانت تتعاظم عليها باستمرار وبصفة مستديمة، ولا شك أن الأموال التي حصلت عليها

[70] – لي هنري تشارلس، العرب والمسلمون... م. س. ص : 131.

الدولة من أملاك المنفيين بطريقة جشعة، كانت عظيمة جدا، فقد جاء في تقرير المجلس المالي في أكتوبر سنة 1610م، أن معظم أملاك العرب والمسلمين في أوكانا Ocana ومدريد بيعت وبلغ ما أحرزته مالية الدولة من ذلك البيع مائتي ألف دوكا[71].

لكن، إذا كانت إسبانيا تدعي أن حل الأزمة رهين بالطرد الموريسكي، فهذا الادعاء كان مجرد شعار لتحقيق الثراء ليس للبلاد وإنما لأشخاص معينين، فقد جاء في رسالتين للسفير الإنجليزي السير فرانس مؤرختين، الأولى في 4 مارس، والثانية في 16 ماي سنة 1028هـ/ 1616م أن المفوضين كانوا يرسلون إلى المقاطعات لبيع بيوت المنفيين ومزارعهم، وأن الملك لم يكن في نيته تخفيف العبء المالي عن الدولة وإنما كان همه الوحيد هو توزيع المال من ذلك البيع على أصفيائه، فقد كان نصيب ليرما Lerma مئتين وخمسين ألف دوكا، ونصيب ابنه دوق أوسيدا مائة ألف ونصيب ابنته دوقة ليموس Lemos خمسين ألف ونصيب زوجها مائة ألف[72].

لم تكن هذه السياسة لتحقق النتائج المتوخاة، بل أبانت عن نتائج عكسية فإذا كانت إسبانيا تراهن بالفعل على تجاوز أزمتها

---

(71) – لي هنري تشارلس، العرب والمسلمون... م. س، ص: 211.

(72) – نفسه، ص: 211 – 212، انظر أيضا:

Histoire des mores Mudejares et des morisques ou des Arabes d' Espagne sous la domination des chrétiens . Circourt, Anne Marie Joseph Albert, Paris 1846 T. 3 note 2 p:225

بمجرد طرد الموريسكيين، فإنها في حقيقة الأمر زادت من تعميق الأزمة فأسفر الطرد عن نتائج وخيمة في مختلف الميادين والأصعدة.

اعتبر العديد من الكتاب زمن فليب الثالث وبعده بأنه رغم إيجابيات النفي من الناحية السياسية والدينية فهو ضار إذا نظرنا إليه من الوجهة الاقتصادية والديمغرافية[73] ، فكان الطرد بمثابة الضربة القاضية لرخاء إسبانيا ومواردها فانحط الإنتاج الزراعي الذي برع فيه الموريسكيون وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدي الماهرة، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من أنشط عناصرها وركدت الصناعة التي كان الموريسكيون أساتذتها وبخاصة الأنشطة ذات العمل التسلسلي[74]، فتناقص بذلك عدد السكان وانكمشت المدن الكبرى وتراجع عمرانها، وتضاءلت موارد الخزينة العامة، وشلت جهود الإصلاح والتقدم، وعم الفقر والخراب مئات المناطق، كل ذلك ناتج عن تعصب إسبانيا وإصرارها على مطاردة وملاحقة الفلاحين والتجار الموريسكيين بأية وسيلة حتى لا يبقى أمامهم سوى خيار واحد إما الاندماج أو الطرد[75].

لكن إذا كانت إسبانيا خسرت اقتصاديا من جراء طردها للموريسكيين فهل استطاعت أن تُنَصِّر وتُعَمِّد أكبر عدد منهم ؟.

---

(73) – محمد عبد الله جمال الدين ، م.س. ص : 301.

(74) – أنطونيو دومينقيز هورتز، وبرنارد بنشت، تاريخ مسلمي الأندلسي...، م. س ، ص : 262.

(75) - Histoire d'Espagne , Descola .J ,Librairie Anthème Fayard 1959 p : 194

3. العامل الديني

كان المسلم والنصراني يتعايشان منذ زمن طويل في إسبانيا، وكان كل واحد منهما سيدا في أرضه ويتعامل مع الآخر المثل بالمثل، ولكن منذ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة أصبح المسلم في أي مكان من إسبانيا مهزوما، وإن كان الظاهر من الناحية القانونية ما زال يتمتع بنفس حقوق المواطنة، إذ يمكن الحديث عن معايشة بين جماعتين لكنه في الحياة الواقعية العامة بدأ ضغط المنتصر وقهره يزداد يوما بعد يوم حتى وصل إلى التفكير بإنهاء وجود هذه الأقلية.

وقد شكل اعتناق إسبانيا للمذهب الكاثوليكي على حساب المذهب الأريوسي ثم النزعة الصليبية للكنيسة ولرجال الدين، ورغبتهما في نشر المسيحية سببا في اضطهاد المسلمين ومحاولة تنصيرهم قسرا. وظهرت هذه النزعة منذ وقت مبكر في الأندلس، فقد أعفت الكنيسة الإسبان من المشاركة في الحملات الصليبية في المشرق، واعتبر البابا أن حروب ملوك إسبانيا مع مسلمي الأندلس هي حروب صليبية[76]، فقد أورد ديفورك أن الفونسو

[76] – شاكر مصطفى، موسوعة دول العالم الإسلامي، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ج 2، ص : 132.

المحارب أجبر المدجنين مرغما من قبل رجال الدين، على الاستماع للمبشرين في المساجد[77].

واشتد الصراع خصوصا في السنوات التي أعقبت سقوط غرناطة، علما بأن فرناندو كان يخشى في البداية عواقب الشروع في تنفيذ هذه السياسة، لعدم توطد الأمن في المناطق المفتوحة، ولأن المسلمين لم ينزع منهم السلاح تماما، وكان الضغط سيؤدي إلى الثورة فتعود الحرب كما كانت. أمام هذا التخوف استمرت ضغوط الكنيسة ورجال الدين وبدأت العملية بإرغام المسلمين وإجبارهم على التنصير والتخلي عن معتقداتهم الإسلامية، يقول صاحب الأزهار: "وتعرفنا عن غير طريق وعلى لسان غير فريق أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد في سالف الدهر، وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقضي في الظاهر الكفر، ولم يقبل منهم الأسر، وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة، وخصوصا أهل واسطتها لقلة الناس وكونهم من الرعية الذهناء مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس وعلم النصارى بأن من بقي بها من المسلمين إنما هم أسارى في أيديهم وعيال عليهم وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل"[78]. ويقول أيضا: " إن طاغية قشتالة وأرغون صدم غرناطة صدمة وأكره على الكفر من بقي بها من الأمة، بعد أن هيض

---

(77) - L'Espagne catalane et le Maghrib Aux XIII et XIV Siècles ,Dufourcq.CH.E, Paris, 1966, P: 186 .

(78) – المقري، أزهار الرياض، ج 1 ، ص : 69– 71.

جناحهم وركدت ريحهم وجعل بعض جنده الخاص على جميع جهات الأندلس... والطاغية يزدهي في الكفر ويختال ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه وتطمس معالمه ورسومه"[79]. هكذا اعتنق عدد من المسلمين النصرانية وخاصة مجموعة من الوزراء والأمراء في مقدمتهم الأميران سعد ونصر ولدا السلطان أبي الحسن من زوجته النصرانية دي سولس المعروفة بثريا، فقد تنصروا ومنحوا ضياعا وسمي أحدهما باسم الذوق فرناند دي جراندا والثاني باسم دون اخوان دي جراندا ثم الوزير ابن كماشة الذي انتظم في سلك الرهبان[80].

اعتمدت إسبانيا في تحقيق هاته الأهداف على سياسة الإغراءات التي تمثلت في الهبات والمنح، وقد تشمل هذه المنح جماعة معينة أو منطقة بأسرها كما هو الحال بالنسبة لأهل وادي الكرين والبشرات فقد أصدر الملكان مرسومين في906هـ/ 30 يونيو 1500م يبرئ سائر أهالي هذه النواحي الذين تنصروا من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة عليهم لصالح العرش، ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة، وهبتها لهم، وإلغاء ضريبة الرأس عليهم لمدة ست سنوات وإقالتهم من الغرامة التي فرضت عليهم من جراء ثوراتهم[81].

---

(79) – نفسه.

(80) – عنان، نهاية الأندلس... م. س ، ص : 315.

(81) – عنان، نهاية الأندلس... م، س. ص : 319 – 320 .

رُغم كل هذا فقد وجدت الحكومة الإسبانية صعوبة في إدماج كل المسلمين وتنصيرهم، فامتنع الكثير منهم. يقول المقري : " وبالجملة فإنهم (أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم عن التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن منها بلفيق وأندرش وغيرهما"[82]. وأمام فشل فاعلية القرارات والمراسيم التي أصدرها الملكان تم تفويض مهمة تنصير المسلمين واجتثاث عقيدتهم إلى محاكم التفتيش ودفعهم إلى الاندماج.

تأسست محاكم التفتيش أول مرة في إيطاليا سنة 629هـ/ 1231م بأمر من البابا هونوريوس الثالث ثم في فرنسا سنة 631هـ/ 1233 ثم في إسبانيا عام 633هـ/ 1235 بأمر من البابا غريغوريوس، وبدات في قشتالة ثم امتدت إلى الجنوب في عهد فرناندو وإيزابيلا. والغاية من تأسيسها في أوربا عامة وفي إسبانيا خاصة هي محاربة الهرطقة وتأمين وحدة الدين المسيحي عند الجميع، وكان مع تلك الغاية مصادرة الأملاك وأخذ الأموال، أما مقراتها على الأغلب فكانت تقوم في الأديرة والكنائس، وهذا منتظر لأن الذي كان يقوم بها سكانها ورعاتها، فمحاكم التفتيش ولدت في أحضان الكنيسة وفيها عرفت وترعرعت وانبنت، وكان لهم جيش وكيان

---

(82) – المقري، نفح ، ج 2 ، ص : 616 – 617 .

كأنه دولة بل هو الدولة[83]، كما عُرفت لها أماكن اخرى كالمباني الإسلامية من الحصون كحصن سنتمنكش[84]، والقصور الإسلامية كقصر الجعفرية في سرقسطة[85] إذ اتخذته محاكم التفتيش لها مقرا مبكراً سنة 890هـ/ 1485 م[86]، وكذلك قصر الخلافة القديم بقرطبة[87]. كان ضحايا تلك المحاكم دائما من اليهود ومن العرب المسلمين. فبالنسبة لليهود يرى دسكولا أن الملكين الكاثوليكيين لم ينسيا الدور الذي أسداه اليهود للمسلمين لتسهيل عمليات الفتوحات الإسلامية في الأندلس[88]، زد على ذلك تشبثهم بعقيدتهم، أما بالنسبة للمسلمين فقد تمكنت هذه المحاكم من التدخل في الحياة اليومية للمسلمين واستطاعت أن تسهل كثيرا لكل مسيحي أن يقوم بدوره في إدانة الهرطقة متى كانت لديه معلومات أو باستدراج الأطفال للاعتراف بما كان يجري بين أفراد الأسرة[89]. وبالموازاة مع عمليات الملاحقة،

---

(83) – الحجي عبد الرحمن علي، محاكم التفتيش الغاشمة، وأساليبها ، ط 1 ، مكتبة المنار الإسلامية الكويت، 1987 ، ص : 45.

(84) – عنان محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ط 2، مؤسسة الخانجي، القاهرة ، 1961 ، ص : 320.

(85) – أرسلان شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات الحياة لبنان ج 2 ص : 118.

(86) – عنان ، الآثار الأندلسية م ... م. س ، ص : 108 .

(87) – نفسه، ص : 31.

(88) - Descola.J, Histoire d'Espagne... op cit p194.

(89) – كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون... م. س، ص : 24.

قامت إسبانيا ومعها محاكم التفتيش بمجموعة من الإجراءات لإنجاح مخططاتها، فقد قامت ب:

- تحويل مجموعة من المساجد إلى كنائس فتم تحويل مئتين وثلاثة عشر مسجدا في المناطق التابعة لمطرانية بلنسية إلى كنائس، وأربعة عشر مسجدا في اسقفية طرطوشة وعشرة مساجد في سيكوري وأربعة عشر في أوريولة[90].

- حرق مجموعة من المخطوطات من الكتب الدينية يقول أحد الشعراء واصفا عملية الحرق التي تعرضت لها الكتب الإسلامية في رسالة لبا يزيد الثاني[91]:

وكل كتاب كان في أمر ديننا ۞ ففي النار ألقوه بهزء وحقرة

ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ۞ ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

– تشكيل إرساليات ومدارس خاصة لتعليم أبناء المورسكيين خلال القرن السادس عشر، ففي بلنسية جرى إعداد ست إرساليات تبشيرية كبرى: الأولى شكلت القرار التنفيذي لقرار الارتداد الصادر في 932 هـ / 20 أكتوبر عام 1525 م[92].

---

(90) – لي هنري تشالس، م. س. ص : 132 .

(91) – المقري، أزهار الرياض ج 1 ، ص : 109 – 115 حيث القصيدة كاملة.

(92) – دمينقير أنطونيو ، تاريخ مسلمي الأندلس... م.س. ص : 122.

- تأليف مؤلفات وكتب تطعن في الإسلام، كمؤلف برنارديو بيريز "في مواجهة القرآن" الذي ظهر في قشتالة عام 936 هـ/ 1529 م وفي بلنسية عام 939هـ/ 1532 م ، ثم كتاب "إزهاق القرآن" للراهب الفلورنسي ريكولدودي فونتكروني الذي ظهر في إشبيلية منذ 906هـ/ 1500م وفي طليطلة عام 908هـ/ 1502م ثم كتاب "نور الإيمان ضد القرآن" من تأليف خوان دي تين وقد ظهر في بلنسية عام 921هـ/ 1515 م وغيرها[93] من الكتب التي تضرب في الدين الإسلامي.

والجدير بالذكر أن مثل هذه الأعمال التي تضرب في ربوبية الله ونبوة محمد ﷺ كانت منذ دخول الإسلام إلى الأندلس لكن الفرق هو أنها في الأول عندما يُضبط قائلها فإنه يعرض للقضاء، فقد أوردت لنا المصادر مجموعة من الأمثلة، منها ما أورده صاحب "الأحكام الكبرى"[94] بخصوص نازلة في شأن نصرانية نفت الربوبية عن الله عز وجل وقالت إن عيسى هو الله و إن محمداً كذب فيما ادعاه من النبوة، فكان مصيرها القتل حسب ما جاء في المذهب المالكي.

[93] - نفسه، ص : 116 – 117.
[94] - ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي، الأحكام الكبرى، مخ. خ. ع. الرباط، رقم 838، ص : 390.

وكل هذه الإجراءات ما كانت لتحول دون استمرار تشبث المسلمين بدينهم الحنيف، خصوصا بعد فتوى أحمد بن بوجمعة الوهراني[95]، التي بنى عليها المورسكيون طريقة وكيفية ممارستهم للشعائر الإسلامية، وجعلت المنطلق الأساسي لظهور التقية عند مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة[96]، هكذا استمر هؤلاء على عقيدتهم ودينهم الإسلامي، مما جعل محاكم التفتيش تتابع خطوات هؤلاء وتلاحقهم فكانت تحكم عليهم بأشد العقوبات، لمجرد تهمة بسيطة أو شبهة، فكان إذا قضي على المسلم بالإدانة فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ وهو أبشع الإجراءات، فيؤخذ من السجن دون أن يدري مصيره الحقيقي ويؤدي رسوم الإيمان الأوتـــــودافـــــي (Auto-da-fé)[97] وهي الرسوم الدينية التي تسبق التنفيذ ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ، وهناك يتلى عليه الحكم لأول مرة، وقد يكون الحكم في التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة أو بالإعدام حرقا في حالة الكفر الصريح.

---

(95) – عن هذه الفتوى انظر كل من عنان، نهاية الأندلس، ص : 342 – 344 ثم محمد قشتيليو، محنة الموريسكوس بإسبانيا، مطبعة الشويخ، تطوان، 1980 ص : 115 – 117 .

(96) – يرى بالقاسم درارجة أن فتوى الونشريسي كانت بمثابة خيبة أمل للمسلمين الأندلسيين بدليل أنها توجب الهجرة على المسلم من بلد غلب عليه الكفر في حين أن فتوى أحمد الوهراني أعادت لهم الأمل وجعلتهم يتراجعون عن الهجرة. انظر بلقاسم درارجة الأندلسيون ومحاكم التفتيش، م. ع. 5 د. م، منشورات ، م. د. ب. ع. م ، زغوان ،1993 ، ج 2 ، ص : 74– 75 .

(97) – وتعني عملية حرق التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش أي الإعدام بالحرق.

وقد يكون الحكم في حالة الذنوب الخفيفة، بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة وهو ما يسمى حكم التوفيق، وكانت أحكام الإعدام هي الغالبة في عصور الديوان الأولى في قضايا الكفر[98]. أما في حالة البراءة عند وجود ذنوب خفيفة يعطى المتهم بعد أن يطهر من كل شبهة للكفر وفقا لإجراءات معينة شهادة بطهارة من الذنوب وهي كل ما يعوض به عن ما لحقه في شخصه وشرفه وماله من ضروب الأذى والألم[99]. وقد مارست محاكم التفتيش أيضا مختلف أنواع التعذيب قصد اعتراف هؤلاء بخطاياهم[100]. وتدل طرق التعذيب هاته على أبشع ضروب الوحشية والبربرية التي ارتكبتها هذه المحاكم ورجالها باسم الدين المسيحي. ومع ذلك استطاع المسلمون الإفلات من قبضة محاكم التفتيش عن طريق الرشوة خاصة، فمثلا كان للمتهم أن يلتمس العفو من الكرسي الرسولي وكانت الخزانة البابوية تغنم عن هذه الالتماسات أموالا طائلة، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى الغني [101]. كما استطاع ثلاثة إخوة وهم قسمى cosme وخوان Juan وهرناند Hernando الحصول على عفو من الملك ومن رئيس محاكم التفتيش وعن

---

(98) – عنان، نهاية الأندلس، م. س ، ص : 337.

(99) – نفسه.

(100) – عن طريق التعذيب انظر علي مظهر، محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها...، مطبعة أنصار السنة المحمدية، 1947، ص: 95-96-97.

(101) – عنان ، نهاية ... م. س. ص: 337.

المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش في مقابل سبعة آلاف دوكا[102]. هكذا إذن ظل المورسكيون محافظين على هويتهم الإسلامية، وتوضح لنا ذلك مسرحية تصور لنا الحياة اليومية لمورسكيي هورناتشوس[103] فظلوا بذلك مسيحيين بالاسم والمظهر مسلمين في العمق[104].

---

(102) – لي هنري تشالس ، م. س ، ص : 127– 128 .

(103) – ثنيافا خوليو فرناند، مسرحية مورسكي هورناتشس، المحتوى الإيديولوجي والشعائري، تعريب رضا مامي، م. ع. 3 د. م حول تطبيق المورسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية ، 1492 – 1609 منشورات م. د. ب. ع. م زعوان، ص : 97 – 106 .

(104) - ch. E Dufourq ‹L Espagne Catalonne ...op cit ‹p : 183

4. العامل الاجتماعي

شكل الواقع الاجتماعي الذي عاشه المورسكيون عاملا حاسما في عمليات الهجرة خارج إسبانيا، فلا المعاهدات ولا الاتفاقيات ولا الوعود المعقودة بين المسلمين الأندلسيين والإسبان بعد سقوط غرناطة، استطاعت أن تحفظ لهم حريتهم الدينية ثم تقاليدهم الإسلامية وأخيرا أن يأمنوا على أرواحهم وأموالهم. كانت أوضاع المسلمين قبل سقوط آخر معقل إسلامي بالأندلس خاصة في الممالك الإسبانية أحسن من الوضعية التي أصبحوا عليها بعد أفول نجم غرناطة، فقط كانت سيادة المساجد والتقاليد الإسلامية واللغة[105].لكن سرعان ما بدأت تتدخل الكنيسة في شؤونهم وذلك منذ عهد ألفونسو المحارب، فأصدرت قوانين ترفض الزواج بين المسلمين والمسيحيين[106].

واستفحلت الأوضاع بعد استسلام أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر، ففي سنة 914 هـ/1508 م، صدر أمر ملكي يمنع جميع الأندلسيين من أصل عربي، ودون استثناء من لباسهم التقليدي ومأكولاتهم، وترتيب أثاث منزلهم على طريقة آبائهم[107]،

---

(105) - Ibidem

(106) - Ibidem

(107) – كاردياك، المسلمون المورسكيون والمسيحيون ، م،س، ص : 112.

ويورد لنا كارديـاك مجموعـة مـن الأمثلـة الـتي تـدل علـى محاولـة الإسبان استئصـال جـذور مـا بقـي مـن الحضـارة الإسـلامية بـالجزيرة الإيبيريـة وملاحقـة بقايـا المسـلمين هنـاك. فقـد اتهـم مـثلا جـوان دوفلوراس Jean de Flores بطليطلة على تعاطيه لدين محمد بسبب الإيمـان الـذي أظهـره وعاداتـه حيـث إنـه لا يجلـس علـى كرسـي ولا يتناول أكلاته على مائدة وهو بهذا يحافظ على تقاليـد محمـد[108]، ثم صـدر حكـم في حق امـرأة تـدعى أنادولينـان Andelinan حرمهـا من حقوقها المدنيـة لإنهـا لا تسـتطيع أن تحمـل الـذهب ولا الجـوهر ولا الحجارة الثمينة ولا الحرير ولا الشملة ولا القماش الرقيق أو أي شيء آخـر[109]، كانـت إذن هـذه قـوانين وأوامـر مـن المملكـة وتعليمـات دواوين التفتيش الـتي منعـت بموجبهـا الحقـوق المدنيـة للموريسـكيين، هذا من جهة ومن جهة ثانية فُرض على هؤلاء نظام الإقامة الجبرية في شـبه الجزيـرة الإيبيريـة، ففـي سـنة 919 هـ/ 1513م صـدر مرسـوم ملكـي يمنـع المسلمين مـن التجـوال في الـبلاد[110] بـل أكثـر مـن ذلـك فـرض علـيهم الاسـتقرار في أحيـاء خاصـة بهـم بالمـدن القديمـة أو بالأريـاض، مثلمـا كـان الحـال بالنسبة لليهـود في العصـور الوسـطى. وقـد عرفـت هـذه الأمـاكن المخصصـة لإقـامتهم باسـم

[108] – كارדياك ، م. س ، ص : 26.

[109] – نفسه ، ص : 56.

[110] – نفسه ، ص : 147.

Las Morerias [111] فبروديل يتحدث عن وجود حيين من هذا النوع في مدريد[112]، كما وجد بغرناطة أيضا حيان متفارقان من حيث الكثافة السكانية فقد وجد حي صغير ضم حوالي 100 منزل في حين ضم حي أكبر منه حولي 5000 منزل[113]، وكانت هذه الأحياء تفصلها عن أحياء النصارى أسوار كبيرة[114].

وتمادت العجرفة الإسبانية في ملاحقة بقية المسلمين، فأصدر فليب الثاني، في حق حوالي 400 ألف موريسكي أي ما يناهز 5 ٪ من نسبة سكان إسبانيا[115] مجموعة من الشروط مقابل السماح لهم بالاستقرار، أوردها فياردوت Viardot [116] على الشكل التالي:

- **عليهم تعلم اللغة القشتالية في ظرف لا يتعدى ثلاث سنوات، ومن فاته الموعد ولم يتعلم اللغة القشتالية فلن يقبل منه الكتابة ولا الكلام بالعربية.**
- **عليهم تغيير ملابسهم بالتخلي عن الملابس الإسلامية فيجب أن يكون لباسهم كلباس القشتاليين.**

---

(111) – نسبة إلى المورس Moros وهو لفظ أطلق على العرب ثم بعد ذلك على سكان شمال إفريقيا ثم على المغاربة وأخيرا أطلق على الموريسكيين وهو يحمل صفة قدحية.

(112) - F.Braudel ‹La Méditérrannée ... op. cit p:120 .

(113) – محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون، م.س ، ص : 50. عنان، نهاية الأندلس، م. س ، ص : 326.

(114) – محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون، م. س ، ص : 50.

(115)-Histoire Des Espagnols (VI - XVII Siècle) Bennassar Bartolomé Et Autre), Editeur Armand Colin, Paris, 1985, T.I, p: 501

(116) - Viardot L, Histoire des Arabes ...,op.cit p : 372

- احتفالات الزواج والعرس، يجب أن تتم على الطريقة القشتالية كما يجب عليهم ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجمع والأعياد الإسلامية.
- التخلي عن أسمائهم الإسلامية واتخاذ أسماء مسيحية.
- منع الاستحمام وهدم الحمامات حتى التي توجد في البيوت.

لكن السؤال يبقى مطروحا هل استطاعت الحكومة الإسبانية أن تجبر الموريسكيين على تطبيق هذه الشروط وإلى أي حد نجحت في سياستها هاته ؟.

لقد تمكنت إسبانيا من تحقيق بعض هذه الشروط، فمثلا فيما يخص اللباس أصبح بعض الموريسكيين يتزينون بالزي النصراني، كما هو الشأن في قشتالة[117]، وبالنسبة للأسماء فمن خلال الدراسة التي قام بها بينصار Bennassar لاحظ أن الأسماء لحقها في البداية تحريف فمثلا بالنسبة ليوسف Youssef حرفت إلى خوسي (Juce) وأحمد (Ahmed) إلى أميت (Axarnet أو Amet) وعبد الله (Abdallah) إلى أودالا (Audallas) وغيرها...[118].

لكن في حي البيازين فرضت الأسماء المسيحية بالقوة، فتم إحصاء 70 ٪ من حوالي 439 رجل يحملون أسماء نصرانية مثل خوان، وفرانسيسكو، وألونسو، وهرناندو، في حين تم إحصاء87 ٪

(117) - Histoire Des Mores .Circourt Albert... Op. Cit..., P : 162

(118) - Histoire Des Espagnols, Bennassar .B Op.Cit ... P : 502.

من حوالي 585 امرأة تحملن هن الأخريات أسماء نصرانية من قبيل ماريا، وإسابيل، وكاطلينة(119).

وجدت هذه السياسة معارضة شديدة حتى من قبل بعض النبلاء الإسبان الذين تولوا الدفاع عن الموريسكيين، فقد دافع فرانسيسكو مولي، وهو من إحدى الأسر النبيلة عن الخصائص الثقافية للمجتمع الغرناطي التي صدرت ضدها التشريعات. فبالنسبة للغة قال أليس من بين من يتحدث العربية مسيحيون طبيبون في الشرق الأوسط ومالطا؟، وبخصوص الملابس أشار مولي إلى أن إسبانيا لها شأن عظيم بين الدول الأخرى حيث يمكنها الافتخار بوجود أنواع كثيرة من الأزياء الإقليمية، أما عن التشريع الذي يمنع الحمامات العامة فقال إن الحمامات موجودة دائما في جميع الأقاليم، فإذا منع الناس من الذهاب إلى الحمامات للاغتسال، أو من الاغتسال في بيوتهم إلى أين يذهبون؟(120). لكن مذكرته هاته أخفقت في إقناع السلطات بالعدول عن رأيها مما دفع بالموريسكيين إلى الاستمرار في تطبيق تقاليدهم وذلك بطرق سرية، كطريقة الاحتفال بالزواج حيث يتم الاحتفال به على الطريقة الأندلسية(121)، بعد الفراغ من مراسمه المسيحية، ثم أيضا طريقة الفضض وهي

---

(119) - Ibidem

(120) – هارفي ليونارد باتريك، تاريخ الموريسكس ... م. س ، ص : 344.

(121) – فيانفا خوليو فرناند، مسرحية هورناتشس ... م. س ، ص : 97 وما بعدها.

العملية التي تقوم بها النساء لمسح آثار عملية التنصير التي يتعرض لها الأطفال الصغار، من قبل الكنيسة لتنصيرهم فكانت النساء تقمن بغسل أبنائهن بالماء الساخن للقضاء على الزيت المقدس، وأثناء القيام بهذا الاحتفال تقع عملية الختان ويعطونهم أسماء عربية[122].

وبالإضافة إلى هذا عانى المسلمون بالأندلس من أنواع الشتم والسب، فقد كان الإسبان دائما ينعتونهم بمختلف أنواع البهائم لتحقيرهم، فنجد الإسباني يعطي لنفسه صفة الأسد أو النسر وذلك لعلاقة هاته الحيوانات أو رموزها بالنبلاء، في حين يضفي على الموريسكي صفة الحيوان المتوحش أو يشبهه بالنمل أو الأرانب أو الفئران لكثرة ولادتهم[123] أو باللصوص كالغربان[124].

وهكذا أخفقت إسبانيا، رغم الإجراءات التي اتخذتها في إدماج الشعب الموريسكي مع الشعب النصراني الإسباني في تحقيق وحدة إسبانيا القومية.

[122] – د. دولورس برامن، اعتبار شعيرة الفضض كمحافظة على عادة العقيقة التي تعود إلى ما قبل الإسلام، تعريب رضا مامي،م.ع03 د. م. حول تطبيق الأندلسيين للشعائر الإسلامية 1492– 1609 منشورات، م. د. ب. ع زغوان ص : 19 – 24.

[123] – رزوق محمد ، الأندلسيون... م. س ، ص : 121 ، حيث يورد أن نسبة تزايد الموركسيين بلغت 69.7 % في حين لم يتزايد الإسبان إلا بنسبة 44.7 % فقط.

[124] – برنسفال ماريا جوزي، الوصف بالحيوان والشتائم البهائمية خلال القرنين 16 – 17 تعريب رضا مامي، م. ع 5 ، د. م. منشورات م. د. ب. ع. م ، زغوان 1993 ، ج 2 ، ص : 252 – 253.

الفصل الثاني : الهجرة ومراكز الاستقرار

1. الهجرة

أمام محاولة الإدماج القسري التي نهجها الإسبان قام الموريسكيون على مر وجودهم بشبه الجزيرة الإيبيرية بمجموعة من الثورات ،كادت أن تغير مجرى التاريخ، بفضل قيادات بارزة كابن أمية وابن عبو، وغيرهم، لولا تعرض هؤلاء للخيانة من قبل بعض العملاء، وقد تمثلت هذه الثورات في ثلاثة انتفاضات أهمها، البيازين في905 هـ/ 1499 م، ثورة البشرات 906 هـ/ 1500 م ثم الثورة الكبرى 976 هـ/ 1568م – 978 هـ/ 1570 م. وقد كانت هذه الثورة الأخيرة أخطر من سابقاتها باعتبارها وافقت قيام ثورة ضد إسبانيا في الأراضي المنخفضة[125]، وكادت أن تأتي على المخطط الإسباني المتعصب. وعنها يتحدث صاحب "أخبار العصر" بقوله : " وقد كان بعض أهل الأندلس قد امتنعوا من التنصير وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم - قرية ونجرو، والبشرة، وأندرش، وبلفيق - فجمع عليهم ملك الروم جموعه، وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم، ونصرهم واستعبدهم إلا أناسا في غربية

(125) – رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم... م. س ، ص : 92 .

الأندلس امتنعوا عن التنصير وانحازوا إلى جبل وعر منيع فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه، وطمع في الوصول إليهم كما فعل بغيرهم، فلما دنا منهم أراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقا كثيرا من رجال وفرسان"[126].

أصبح المشكل المورسكي –كما أكد ذلك بروديل[127] – صراعا بين حضارتين قابلا للاستمرار، فأضحت القضية تشغل بال الساسة الإسبان طوال القرن 10 هـ/ 16 م فكان المورسكيون يعدون خطرا بسبب علاقاتهم مع أعداء إسبانيا وبخاصة أعداءها في العالم الإسلامي من جهة ثم إن وجودهم يضرب مفهوم الهوية الوطنية عرض الحائط من جهة ثانية.

لقد نادى بعضهم بسياسات متطرفة لمعالجة المشكلة وذلك منذ حرب البشرات الثانية (الثورة الكبرى)، وتزايدت الأصوات الداعية إلى حل جذري ونهائي في بداية القرن 11هـ/ 17م، و أصدر فليب الثالث في 1018هـ/ 9أبريل عام 1609 م قرار الطرد النهائي الذي توافق مع يوم عقد هدنة الأثني عشرة سنة مع الأراضي

---

[126] – مجهول، اخبار العصر ... م. س ، ص : 118– 119.

[127] - Brandel .F La Méditerrannée ... Op Cit , P : 118 .

المنخفضة كما أن السلام عقد مع كل من فرنسا وأنجلترا[128]، الشيء الذي مكن إسبانيا من نشر قواتها للإشراف على عمليات الطرد كما أتاحت لها فتراته المتباعدة للقوات الإسبانية التحكم فيه، حيث إن الطرد لم يكن دفعة واحدة بل دفعات متقطعة والبدء بمنطقة بعد أخرى.

وكانت البداية من بلنسية لأنها كانت أخطر أماكن الوجود الموريسكي[129] فقد كانوا يمثلون حوالي 40 ٪ من ساكنتها[130]، أضف إلى ذلك أنهم كانوا غير مخلصين للسلطات الإسبانية كما هو الحال بالنسبة لموريسكيي قشتالة[131]، وكان على الإسبان أن يعطوا المواثيق والعهود بأن تلك العملية مقصودة على بلنسية وحدها ولا تتعداها إلى غيرها، كما أن معارضة النبلاء لذلك التدبير الذي يحرمهم من اتباعهم اشتريت بمنحهم الأملاك المنقولة وغير المنقولة التي كانت لأتباعهم[132].

وبعد انتهاء السلطة الإسبانية من العملية الأولى تم تهجير البقية الموجودة في كل من أراغون وكاطلونيا والأندلس وقشتالة.

---

(128) – هارفي باتريك، تاريخ الموريسكيين، م. س، ص: 351.

(129) – قشتيليو محمد، محنة الموريسكوس...، م. س، ص: 69

(130) – B, Histoire des Espagnoles, Bennassar... op. cit, p : 501

(131) - Circourt . Albert , Histoire Des Mores Mudejares... op. cit, p: 162

(132) – لي هنري تشالس، العرب والمسلمون... م. س، ص: 181.

واختلفت المصادر في تقدير عدد المطرودين من إسبانيا ف B. Bennassar يقول إن عددهم بلغ أثناء صدور قرار الطرد 400 ألف[133] ، في حين يورد رزوق أرقاماً نقلا عن مصادر إسبانية بلغت في بعض الأحيان إلى مليون شخص[134] ، وقد قدر عالم الديمغرافيا الفرنسي هنري لا بيري وذلك من خلال تقارير الإحصاء الرسمية للسكان ومن خلال قوائم المسافرين على متن السفن أن هناك 275.000 مسلم إسباني قد هجروا خلال سنوات 1018-1609/1023 - 1614 ، من مجموع 300.000 مسلم إسباني[135] ، بينما أورد الكونت ألبير أعداد المهاجرين من مختلف المدن الإسبانية[136].

(133) - Bennassar . B , Histoire des Espagnoles... , op. cit, p : 501

(134) – رزوق محمد ، الأندلسيون وهجراتهم... م. س، ص : 126 – 127 .

(135) – بواس روجر، طرد المسلمين من إسبانيا، مقال بمجلة الفسطاط التاريخية (الأنترنيت).

(136) - Circourt . Albert, Histoire des mores mudejares ... , op , cit p : 219

المدينة	عدد المطرودين
الهجـــرة الأولـــــــى	
بلنسية	150.000
الأندلس	80.000
أراغون	64.000
قطالونيا	44.000
قشتالة	82.127
مورسية	6.552
قلعة رباح	1.100
فال ريكوت	2.500
الهجـــرة الثانيـــة	
بلنسية	6.000
قشتالة	17.317
المجموع	**453.596**

هـذا بالنسبة للمصادر الأجنبية، أما فيما يخص المصادر الموريسكية، والمتمثلة في مصدرين أساسيين الأول يورد أن الأندلسيين الذين شملهم قرار الطرد بلغ 600.000 [137]. في حين أوصل الثاني الرقم إلى 800.000 شخص[138].

ولا يفوتنا هنا التذكير بما تعرض له هؤلاء المهاجرون أثناء عمليات الطرد من أعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات من لدن الإسبانيين أو أرباب السفن والبحارة.

وكيف ما كان الأمر فالمهاجرون لم يتخذوا وجهة واحدة بل تفرقوا في أقطار شمال إفريقيا : تونس، مصر، الجزائر والمغرب، كما اتجهت فئة منهم إلى تركيا وفرنسا وهولندا بل وحتى العالم الجديد خاصة أولئك الذين كانوا يشتغلون بالتجديف، كما بقيت نسبة منهم بإسبانيا بأمر من فليب الثالث لخدمة الاقتصاد الإسباني.

وقد كان نصيب المغرب باعتباره موضع الدراسة حسب بعض الدراسات حوالي 40.000 [139] شخص تفرقوا في مختلف جهاته. فما هي إذن أهم مراكز استقرارهم بهذا البلد ؟.

---

(137) – ابن عبد الرفيع محمد الأندلسي، الأنوار النبوية في أنباء خير البرية. مخ.خ.ع ، الرباط، رقم 1238 5 ، ص : 335.

(138) – الحجري أحمد بن قاسم، ناصر الدين على القوم الكافرين ، تحقيق محمد رزوق، البيضاء، 1987 ،ص : 41.

(139) – دومنقير أنطونيو، تاريخ مسلمي الأندلس... ، م. س ، ص : 282– رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم...، م.س، ص : 130.

2. مراكز الاستقرار

ظلت الهجرات الأندلسية منذ الفتح الإسلامي، محافظة على توازنها بين العدوتين لارتباطها بما يعرف في الاصطلاح الجغرافي بعملية الجذب والطرد، ومنذ هزيمة العقاب وما أفرزته من تغير في موازين القوة لصالح النصارى، فقد فرض على هذه التنقلات أن تأخذ صبغة مدنية، وفي اتجاه معكوس، ومع توالي الضغوط المسيحية ونجاحها في انتزاع أراضٍ جديدة من يد الأندلسيين، أضحى المغرب ملاذا مستمرا للوافدين بصورة متقطعة إلى حين بداية أفول الوجود الإسلامي بمملكة غرناطة في القرن الخامس عشر الميلادي حيث ارتفعت أعداد المهاجرين إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ومن ضمنها المغرب.

وكان لصدور فتوى الونشريسي أثرها البالغ في ارتفاع وتيرة الهجرة، فقد اعتبر هذا الفقيه أن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة... ولا يُسْقِط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية – لعنه الله – على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز عنها بكل وجه وحال ، لا الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع،قال تعالى : " **إلاّ المُستضعَفين من الرجال والنساء والوِلْدَان لا يستطيعون حيلَةً ولا يَهْتَدون سبيلاً. فأولئك عسى اللهُ ان يَعْفُوَ عنهم. وكان الله عَفُوًّا غَفُوراً**" وأما المُستطيع بأي

وجه كان وبأي حيلة تمكنت فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام..." (140).

وقد زاد مؤكدا على الهجرة "... لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة والصغار لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار، لما تنتجه من الأدناس والأضرار والمفاسد الدينية طول الأعمار..."(141).

استطاعت هاته الفتوة أن تؤثر في الأندلسيين فتزايدت هجراتهم، لكنها سرعان ما عرفت نوعا من التراجع وذلك راجع لعاملين أساسيين:

- انتشار الوباء في المغرب والأندلس. يقول المؤرخ المجهول "... وكان من قضاء الله تعالى وقدره أنه لما جاز الأمير محمد بن علي وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس فأخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الإقامة والدجن"(142).

- صدور فتوى أحمد بن بوجمعة الوهراني(143) التي وجهها إلى مسلمي غرناطة الذين أجبروا على اعتناق المسيحية، وقد أعطت

(140) – الونشريسي أحمد، المعيار المغرب والجامع المعرب .. م، س، ص : 121– 122

(141) – نفسه، ص : 138.

(142) – مجهول، أخبار العصر... م.س ، ص : 117

(143) – عن الفتوة، انظر، عنان نهاية الأندلس... م.س، ص : 242 – 243 ، قشتيلو، محنة المورسكوس... م. س ، ص : 115 – 117.

لهم هاته الفتوى آمالا جديدة، حيث أزالت عنهم فريضة الهجرة ودعتهم إلى التقية[144] لأن الإسلام يسمح لهم بها ، كما أعطت لهم حلولا تسهل عليهم كيفية ممارسة شعائرهم الدينية، وقد مثلت هذه الفتوى المرجع الأساسي للموريسكيين من أجل المحافظة على هويتهم.

لقد مكن هذان العاملان من التخفيف من وتيرة الهجرة وأخذوا بحديث "لاهجرة بعد الفتح" فتحملوا بذلك شتى أنواع الاضطهاد والعنصرية والتقتيل إلى غاية إصدار قرار الطرد النهائي، وتركت لنا المصادر تفصيلا مفيدا في الأماكن التي سكنها المهاجرون الأندلسيون، نأتي هنا على ذكر نص لمؤرخ مجهول مع بعض الاختصار قال: "خرج من نفي من أهل مالقة إلى بادس، وخرج أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة وخرج أهل رندة وبسطة إلى تطوان وأحوازها، وخرج أهل مسينة إلى بلاد الريف، وخرج أهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة وأهل مرشانة وأهل البشرة إلى قبيلة غمارة وخرج أهل بيرة وبرجه واندارش إلى ما بين طنجة وتطوان، ثم انتقل البعض منهم إلى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة وخرج أهل مرسية إلى مدينة أزيلة وما قرب منها، ثم خرج أهل مدينة بلش وبسطة إلى مدينة سلا وخرج أهل طريفة إلى آسفي"[145].

---

[144] – عن الفتوة انظر، كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون... م،س، ص: 90 – 102.

[145] – النص أورده محمد بنشريفة ضمن مقال "المغرب مهاجر الأندلسيين" مجلة الأكاديمية، العدد 15 (عدد خاص عن الموريسكيين في المغرب)، ص:23

من خلال هذا النص يتضح لنا أن التنقلات الأندلسية تركزت في المنطقة الشمالية، وهذا ليس لشيء إلا لأنها هي الأقرب لشبه الجزيرة الإيبيرية، فكانت بذلك المحطة الأساسية للعبور منها إلى باقي جهات ومدن المغرب، ورغم تعدد مناطق استقرار الأندلسيين – كما أشار النص – ففي حقيقة الأمر هناك ثلاث مدن كان لها الحظ الأوفر في استقطاب المهاجرين أهمها:

• تطوان

ساهم الموقع الاستراتيجي لهذه المدينة في استقطاب نسبة مهمة من المطرودين، لقربها من الضفة الجنوبية للمتوسط، الشيء الذي مكنهم من محاولات الانتقام من خصومهم الإسبان وتوجيه ضربات ضد سفنهم ومن ثمة جاء ظهور التطوانيين كمجاهدين كان لهم أثر واضح في العمليات الجهادية التي عرفها الحوض المتوسط. ويرجع استقرار الجالية الأندلسية في تطوان إلى السنوات التي أعقبت سقوط غرناطة إذا أخذنا برأي الرهوني[146]، بقيادة علي المنظري، حين قاموا بتجديد بناء تطوان بعد أن بقيت خالية لمدة ناهزت التسعين سنة بسبب التخريب الذي لحقها من قبل الإسبان.

---

[146] – يقول الرهوني: إن سبب قول الناصري بأن تطوان كان بناؤها قبل سقوط غرناطة، الناصري ابو العباس احمد، الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب البيضاء 1954 ، ج ص : 184 الها مبنية على قصد الافتخار وعدم الاعتراف بغلبة الإسبان عليهم، احمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، ط 1، منشورات جمعية تطاون اسمير تطوان 1998 ج 1، ص : 174.

وقبل عملية البناء هاته، قام هؤلاء الأندلسيون بإرسال وفد إلى السلطان محمد الشيخ الوطاسي بفاس، لقوا من خلاله مقابلة حسنة، فأجابهم وساعدهم على طلب بناء البلدة والسكنى بها[147].

وبعد استقرار الأندلسيين الأوائل، تواصلت عمليات الهجرة، سرا وعلانية إلى المدينة التي كانت تشبه إلى حد كبير البيئة الأندلسية، حتى غاية إعلان فليب الثالث لقراره المشؤوم فرحب بهم آل النقسيس ذوو الأصل الأندلسي[148]، فأسسوا بدورهم حومة خاصة بهم عرفت بالسانية[149]، وقد كان هدف آل النقسيس وهؤلاء واحد وهو الانقضاض على سبتة للانتقام من الإسبان ثم القضاء على محمد الشيخ المتعاون مع إسبانيا، ثم لمحاولته القضاء وتصفية المجاهدين بتطوان، حيث سلب من هؤلاء المهاجرين الجدد كل ما لديهم كما فرض عليهم الخدمة العسكرية معه في محاولته ضد العرائش والقصر الكبير، ويدخل هذا في إطار العقوبة التي فرضها محمد الشيخ على أهل تطوان بعد فرار أحمد النقسيس إلى

---

(147) – الرهوني، المصدر نفسه، ص : 173 – 174 انظر أيضا مارمول كاربخال، إفريقيا ترجمة محمد ديبي حجي ومحمد الأخضر، ومحمد زنيبر وأحمد توفيق وأحمد بنجلون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1989 ، ج2، ص : 222.

(148) – أرجع محمد بن عزوز حكيم أصل النقاسسة إلى الأندلس وهي حقيقة يشك في صحتها انظر مقاله " أولاد النقسيس الأسرة الأندلسية التي حكمت تطوان حوالي قرن"، ضمن أعمال ندوة المورسكيون في المغرب ، مطبوعات الأكاديمية المغربية. في حين أرجع داود أصلهم إلى قبيلة بني يدر انظر تاريخ تطوان ج 1 ، ص : 176.

(149) – الرهوني عمدة الراوين... م. س ، ج 2، ص : 33.

زاوية أحمد الفيلالي[150]. وعلى كل فإن فترة أحمد بن عيسى النقسيس كانت فترة جهاد ضد الإسبان فعرفت المدينة بذلك توافد أعداد مهمة من الأندلسيين وصلت نسبهم إلى الربع 1/4 من مجموع المهاجر ين إلى المغرب أي حوالي 10000[151]، فأذاقوا السفن الأوربية والإسبانية خاصة العذاب.

• الرِّباط

تعود الهجرات الأندلسية المباشرة في اتجاه هذه المدينة إلى الفترة الموحدية أي القرن السابع الهجري الموافق للثالث عشر الميلادي وذلك بصدور ظهير الخليفة الرشيد في 21 شعبان 637 هـ[152]/ 1239م يقضي بالسماح لجالية بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من بلاد شرق الأندلس للاستقرار بمدينة رباط الفتح، " إذ أذن لهم في النقلة إلى رباط الفتح... بقضيضهم وقضهم، وأن يتخذ وا مساكنه أرضه بدلا من مساكنهم وأن يتوسعوا في الحرث ففي أرضه هناك متسع ويتبسطوا في مالهم منه مكافئ وبه متنفع ويغرسوا الكروم

---

(150) – انظر الفكيكي حسن، المورسكيون بمنطقة جبل طارق، مجلة الأكاديمية، ع، 15 ، (عدد خاص عن المورسكيين بالمغرب) ، ص : 129 .

(151) – رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم ... م،س، ص : 130.

(152) – انظر الظهير كاملا عند السويسي عبد الله، تاريخ رباط الفتح، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1979، ص 101– 102.

وأنواع..." على عادتهم في بلادهم..." كما هيأ لهم الظروف لذلك "... لذلك فالولاة والعمال... مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب من جوانبهم ويعوق عن مآرب صغير أو كبير من مآربهم وأن يكرموا غاية الإكرام نبهاءهم وأعيانهم ويولوهم من أحسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم..."

لكن سرعان ما عرفت هذه الهجرات إلى الرباط خاصة في العهد المريني والوطاسي بعض التراجع. ويرجع أحد الدارسين المغاربة[153] ذلك إلى نهج الزعامتين (المرينية والوطاسية) لسياسة التهميش المتعمدة تجاه مدينة رباط الفتح الموحدية وخاصة الضفة اليسرى لمصب أبي رقراق، ونلمس هذا التهميش من خلال اهتمام السلاطين المرينيين بمدينة سلا أي الضفة اليمنى حيث أنشأوا الأسوار والمدارس والمساجد ومدها بقناة تجلب لها الماء من عين بركة التي سميت باسمها[154].

تغيرت الأوضاع بعد تولي السعديين السلطة فعرفت منطقة المصب توافد الهجرات. وقد شكلت المنطقة ملجأ مهما للمهاجرين

(153) – السمار محمد، الرباط منذ التأسيس إلى نهاية القرن السابع عشر، أطروحة دكتوراه في التاريخ بكلية الآداب الرباط.. ص : 76.

(154) – قناة عين بركة أسسها السلطان أبو الحسن المريني، انظر كتاب الاستقصا، للناصري ج 3 ، ص : 175 – 176.

الموريسكيين بعد إعلان قرار الطرد 1018 هـ 1609م ويورد لنا طيراس أثناء حد يثه عن عدد المطرود ين الإسبان أن عدد الذين هاجروا إلى الرباط كان مهما دون تحديد أرقام(155)، في حين حصرت بعض الدراسات الرقم في حوالي 3000 شخص من الهورناتشوس و5000 شخص من الأندلسيين(156) ومن جهة حدد كايي الرقم ما بين 5000 و6000 أندلسي وما بين 2000 و3000 من الهورناتشوس(157).

- **فاس**

إن أول هجرة تتحدث عنها المصادر التاريخية هي هجرة الريضيين من قرطبة. وقد كانت إلى هذه المدينة حيث استقروا بالعدوة التي تحمل اسمهم (عدوة الأندلسيين) وقد وقعت هذه الهجرة في عهد إدريس الثاني (188 هـ – 213 هـ/803 م - 829 م)، وترجع إلى ظروف داخلية تتعلق بالأندلس ذاتها أدت إلى وقوع ثورة أهل الريط بقرطبة في عهد الحكم بن هشام (180 هـ/ 206 هـ/ 796م –821 م)، ذلك أنه حاول أن يحد من سلطة الفقهاء فأخذ يتولى الأمر

(155) - Terrasse Henri ,Histoire Du Maroc des Origines à L'Etablissement du Protectorat Français,atlantides 1949 – 1950 P: 219 .

(156) - Chastel Robert , Rabat - Salé , Vingt Siècles De L' oued Bouragreg , Edition La Porte, Rabat, 1994 ,p : 17

(157) - Caillé. J ,La ville de Rabat …Op Cit , p :249

بنفسه ويعهد بالأعمال إلى رجال من ثقاته مما سبب نقمتهم عليه وحاول النيل منهم أمام العامة فكان أن أجمعوا على الإطاحة به لكن المحاولة انكشفت(158) فتحركت العامة بتحريض من الفقهاء إلى قصر الأمير وحاصروه فاستدعى قواته لدفع المهاجمين وأشعل النار في الريض مما أدى إلى فشل الثورة وأمر عندها أهل الريض بالخروج من الأندلس فسار بعضهم إلى فاس ونزح البعض الآخر إلى الإسكندرية. يقول ابن أبي زرع عن المهاجرين إلى فاس "... فنزلوا عدوة الأندلس وشرعوا بها في البناء يمينا وشمالا إلى ناحية الكدان ومصمودة وفوارة وحارة البادية والكنيف إلى الرميلة فسميت عدوة الأندلس..."(159).

وتواصلت الهجرات الأندلسية إلى المدينة سواء في شكل فردي ويخص بالذكر هجرات العلماء(160) أم في شكل عائلات كهجرة الأمير الغرناطي وعائلته إلى فاس ثم هجرة اليهود حتى إن

---

(158) – ابن عذاري، البيان المغرب... م. س ، ج 2، ص : 108 ، المقري نفح الطيب ... م. س ج 1 ، ص : 322 .

(159) – ابن أبي زرع علي الفاسي "الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" دار المنصور للطباعة والنشر الرباط 1972 ص : 47.

(160) – ترجمة ابن القاضي لعدد من العلماء الأندلسيين انظر جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط 1973 جزآن.

الوزان يقول: "وقد تكاثر السكان اليهود حتى إنه لم يعد بالإمكان معرفة عددهم لا سيما بعد أن طردهم ملوك إسبانيا"[161].

واستمرت هذه الهجرات حيث دخلت مجموعة من العائلات إلى فاس ويورد بعضها أحد الدارسين المغاربة، كالعمرانيين، والقادريين، أولاد البلجي، وأولاد البياض، وأولاد بقي، وأولاد البلاج، وأولاد البزار، أولا د البلنسي، وأولاد البرجي، اعتمادا على بعض المصادر الخاصة بالعائلات كالحوالات الحبسية بفاس أو الكنانيش[162].

هكذا حظيت هذه المدن الثلاث باحتضان أكبر عدد من المهاجرين الأندلسيين لكون كل واحدة منها استقبلت في فترة من الفترات مهاجرين أندلسيين. هؤلاء الذين وفروا الجو الملائم لبقية إخوانهم. وقد احتفظت معظم العائلات بأسمائها[163].

[161] – الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج 1، ص : 219 –220.

[162] – مزين محمد، فاس وباديتها، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986، ج 1، ص: 221 – 222.

[163] – أسماء العائلات المستقرة بتطوان. انظر داود، مختصر تطوان. المطبعة المهدية، تطوان، 1955، ج 2 ص: 329 وما بعدها. وعن عائلات الرباط انظر السمار، تاريخ الرباط ، م. س ، ص : 85 – 88 وعن عائلات فاس انظر رزوق، الأندلسيون وهجراتهم ... م. س ، ص : 311 – 314.

لكن السؤال الذي يبقى مطروحا هو ما هي طبيعة علاقة هؤلاء المهاجرين مع السكان المحليين؟ أو بعبارة هل استطاع هؤلاء الاندماج مع المغاربة؟.

3. الأندلسيون بين الاندماج وصعوبته

كان موقف الموريسكيين من الطرد إيجابيا فهذا ابن عبد الرفيع الأندلسي يعبر عن فرحته بصدور هذا القرار بقوله : "... ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة لما كنا فيه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال فسبحان رب السموات ورب الأرض الذي أراد أمرا قال له كن فكان يا لها من أعجوبة ما أعظمها ومن فضيلة ما أشرفها ومن كرامة ما أجملها ومن نعمة ما أكبرها"[164].

يتضح من خلال النص أن الموريسكيين عقدوا آمالهم على إخوانهم المسلمين بالضفة الجنوبية للمتوسط. فهل كان هؤلاء عند حسن ظنهم؟ أورد لنا المقري أنه بمجرد وصول الأندلسيين إلى الضفة الجنوبية تعرضوا للنهب والسرقة. يقول : "تسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله في الطرقات ونهبوا أموالهم. وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل منهم من هذه المضرة"[165]. يشير النص إلى نقطتين أساسيتين الأولى تمثلت في أن الإساءة كانت من لدن البدو أي الأعراب، الذين كانوا غير خاضعين للسلطة خاصة أن المنطقة كانت تعيش اضطرابات سياسية، مما يدفعنا إلى طرح السؤال عن موقف السلطة الرسمية من الهجرة الأندلسية؟ والنقطة

---

(164) – ابن عبد الرفيع، الأنوار النبوية ... م. س ، ص : 335.

(165) – المقري، نفح الطيب ... م. س ، ج 4 ، ص : 528.

الثانية تمثلت في كون المناطق التي كانت بها الإساءة شملت تلمسان وفاس فماذا عن مصر وتونس مثلا؟ .

فيما يخص النقطة الأولى فالأحداث لا تترجم حقيقة الشعور العام تُجاه مأساة الأندلسيين، فقد حاول مختلف الحكام المعاصرين تقديم العون للمطرودين ومن ضمنهم سلطان المغرب المولى زيدان الذي سعى إلى حمايتهم والدفاع عن مصالحهم بالتدخل لدى ملك فرنسا لمطالبته بإعادة ما نهب لبعضهم من قبل بحارة فرنسا وقد كلف الشهاب الحجري بجزء من هذه المهمة[166]، كما قام السلطان السعدي بإعطاء حق الاستقرار للبعض منهم بمصب أبي رقراق[167]، ومن جهة قدم أحمد بن عيسى النقسيسي تسهيلات لاستقرار الجالية الأندلسية بتطوان.

أما النقطة الثانية فإن الذين توجهوا إلى تونس ومصر[168] لقوا استقبالا وترحيبا من قبل السلطة فكان اندماجهم سهلا، وذلك راجع إلى الظروف السياسية التي كانت تعرفها كل من مصر وتونس.

---

(166) – الحجري، ناصر الدين... م. س. ص : 68.

(167) - Chastel Robert , Rabat - salé ... op. cit , p : 17.

(168) – عن تونس يقول صاحب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس: "وفي هذه السنة (1608/1017) والتي تليها جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب إسبانية وكانوا خلقا كثيرا، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على االناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا". محمد بن أبي دينار ص : 204.

وحتى بالنسبة لاندماج هؤلاء فقد اختلف داخل البلد الوحيد فالمغرب مثلا يقول شارل بينز إن الذين استقروا بتطوان وفاس حاولوا الاندماج مع السكان الذين تأثروا بهم عكس الذين استقروا بالرباط، ويقصد الهورناتشوس على الخصوص لكونهم مجموعة ملتحمة ومتماسكة قبل وبعد الهجرة[169].

وعموما يمكن أن نَعْزُوَ هذا النفور إلى أسباب عدة منها ما هو تاريخي وما هو اقتصادي ثم ما هو سياسي ثم أخيرا ما هو اجتماعي.

• **الجانب التاريخي**

كان بين الأندلس والمغرب ما يمكن أن يكون بين بلدين متجاورين من صراع متعدد الأشكال متنوع المظاهر، وهو صراع طبع تاريخ البلدين بطوابع يلمسها دارس التاريخ في مختلف الميادين السياسية، والثقافية، والاجتماعية[170]، فهذا ابن الخطيب يستعمل عبارة النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة[171]، والحجازي يقول أيضا: "وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس"[172]. وهذا

(169) - Penz .CH, Les captifs français du Maroc au XVII siècle imprimerie officielle, Rabat 1944 , p: 10

(170) - بنشريفة محمد، من منافرات العدوتين، مجلة كلية الآداب الرباط العدد الأول يناير 1977 ص: 7 – 41.

(171) - ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، تحقيق لفي بروفنسال دار المكشوف، بيروت 1956 ص: 227.

(172) - المقري، نفح الطيب م،س ج 6 ص: 12.

المقري ينقل من بعض المؤرخين الأندلسيين ما يلي: " وكان البربر بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر ويرد عليهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورا وأكثر انحدارهم من نسب أو مجاورة حتى ثبت ذلك في طبائعهم، وصار بعضه مركبا في غرائزهم، فلم نجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا وبالعكس"(173).

ويمكن أن نقرر أن الأندلسيين كانوا على العموم هم البادئين بالتجني والتحامل على أهل العدوة الذين لهم الحظ الأوفر في فتح الأندلس والإسهام في بناء حضارتها أولا، ثم الذوذ عن حماها والمحافظة على بقاء الإسلام فيها ثانيا.

وكان لما وصل إليه الأندلسيون من حضارة وعمران في عهد الأمويين باعثا أساسيا لتبجحهم على أهل العدوة، ثم زاد شعورهم بالاستعلاء حينما أتيح لهم بسط نفوذهم على المغرب في عهد عبد الرحمن الناصر ومن جاء بعده. واستمر هذا النفور خاصة بعد التنقلات الأندلسية المتواصلة إلى المغرب، وقد سجلت لنا المصادر مجموعة من الإشارات تدل على هذا الصراع فمثلا عند ورود المنظري إلى تطوان دخل في صراع مع السكان المحليين الجبليين(174)، لكن سرعان ما ذاب هذا الصراع. يقول داود: "وأخيرا استقر بتطوان نهائيا

(173) – المصدر السابق، ج 1، ص: 228

(174) – داود، تاريخ تطوان، م. س، ج 1 ص: 93.

عـدد مـن الـريفيين والجبلـيين إلى جانـب إخـوانهم الأندلسـيين ومـن سـكن معهـم مـن أهـل فـاس فتصـاهـرت العـائلات وامتزجت المصـالح ومرت على ذلك عهود تتوسـيت فيهـا الفـوارق الـتي بـين العنـاصـر لـدى كثيرمن النـاس"[175].

والشيء نفسه عرفته مدينة الرباط عقب الهجرة الأندلسية الأخيرة سواء بين المهاجرين والسكان المحليين وخاصة السلويين بزعامة العياشي[176] أم بين المهاجرين أنفسهم أي بين الأندلسيين من جهة والهورناتشوس من جهة ثانية، وفي فاس وقع صراع بين سكانها ،إذ لا يمكن فصلها عن وضعية الأندلسيين وعلاقتهم بالسكان. يقول القادري : "..ووقعت فتنة بين أهل فاس الجديد وفاس القديم إذ رمى أهل فاس الجديد الرصاص فمات بعض الناس وسلب كثير.." [177].

---

(175) – نفسه ص : 98.

(176) – عن الصراع بين العياشين والأندلسيين انظر، الاستقصا ، ج 6، ص : 76 ثم الشاذلي عبد اللطيف، الحركة العياشية، البيضاء 1985 ص : 137، الإفراني، نزهة الحادي، في أخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1998، ص : 385، انظر كذلك مخطوط الجواهر المختارة للزياني ، ص : 241.

(177) – القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني، لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، دار المغرب للترجمة والنشر الرباط 1977 ج 1 ص : 336.

- **الجانب الاقتصادي**

يعد هذا العامل أهم العوامل التي كانت وراء الصراعات التي نشبت بين الأندلسيين المهاجرين والسكان المحليين فمثلا عند استقرار المنظري بتطوان كان "... سكان القبائل المجاورة لتطوان... قد استاؤوا من بناء هذه المدينة بدعوى أن أرضها تقع في بلادهم وأن مرافقها هي الأخرى مراعٍ لماشيتهم، وأن بناءها وعمارتها يضيقان عليهم ويضران بمصالحهم"[178].

وفي منطقة المصب كان الصراع بين الأندلسيين والهورناتشوس حول أحقية اقتسام موارد الميناء. وأورد لنا الزياتي نازلة في هذا الشأن[179]، أما فيما يخص الصراع بين الأندلسيين والسلويين فهو لنفس الأسباب، فقد كانت مدينة سلا مركزاً تجاريا هاما خاصة بعد الاهتمام الذي أولته لها السلطة المرينية على حساب رباط الفتح، وقد كان للتجارة أثرها البليغ على الحياة الاقتصادية في سلا منذ أواسط القرن 12 م على الأقل، وتحديدا بفضل تجارة الذهب الذي تجلبه إليها القوافل التجارية من السودان[180]، والذي تمت غالبية تجارته مع الجمهوريات الإيطالية

---

(178) – داود، تاريخ تطوان، م.س، ص : 97

(179) – الزياني، الجواهر المختارة، ... م. س، ص : 241.

(180) – براون كينث، موجز تاريخ سلا، ترجمه عن الإنجليزية محمد حبيدة وأناس لعلو، منشورات أمل، البيضاء، 2001 – ص : 41.

وبخاصة الجنوبية، الذين ترددوا على الميناء للحصول على هذه المادة لحاجتهم الملحة لضرب عملة ذهبية على غرار العملة الإسلامية والبيزنطية[181]. هذا دون نسيان مواد أخرى صدرها الميناء في اتجاه أوربا كالكتان والنيلة والقطن والحبوب والفواكه الجافة ومواد أخرى مثل الملف والقرمز ومسحوق الدباغة...[182] إلا أن استقرار الأندلسيين في الضفة الجنوبية للمصب نتج عنه تحول في الموازين شمال وجنوب المصب لصالح الجنوب، فقد أصبحت الرباط تستقطب التجار الأوربيين لأن الجهاد البحري[183] في هذه الفترة أصبح هو المتحكم في ربط العلاقات سواء الدبلوماسية[184] منها أم التجارية، فقد كانت أوربا في حاجة إلى افتكاك أسراها كما كان المجاهدون أيضا في حاجة إلى شراء الأسلحة والعتاد لمواصلة عملياتهم الجهادية[185]، أضف إلى ذلك أن الأندلسيين كانوا لا يستطيعون بيع جميع بضائعهم المغتنمة بالمغرب مما حدا بهم إلى

---

(181) – نشاط مصطفى، جنوة وبلاد المغرب، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ كلية الآداب وجدة، 1996– 1997، ص : 148 – 149

(182) – براون، موجز تاريخ سلا... م. س ، ص : 42.

(183) – عن الجهاد البحري بمصب أبي رقراق، انظر أطروحة دكتوراه لحسن اميلي، بكلية الآداب الرباط 1988– 1989 جزءان .

(184) – أحصت نزهة إخوان أن السفراء الأندلسيين مثلوا حوالي 20 % من السفراء المغاربة إلى أوربا. انظر أطروحتها حول العلاقات المغربية الخارجية خلال القرن 17 م/ 11هـ أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ بكلية الآداب الرباط، 1989– 1990، ص : 220

(185) - Caillé.J, la ville de Rabat ... , op.cit , p : 227

البحث عن أسواق خارجية فوجدوا ضالتهم في الجمهوريات الإيطالية الصغيرة كجنوة وبزة وليفورن[186].

نلاحظ إذن أن أندلسيي الرباط أصبحوا هم المتحكمين في التجارة وذلك لاحتكارهم للجهاد البحري الذي أرغم الأوربيين على طلب ود هؤلاء لتفادي شرهم وتجنيب سفنهم ضرباتهم القوية.

أما فاس فالصراع الذي يورده لنا القادري، والذي وقع بين اللمطيين والأندلسيين فأساسه كان اقتصادياً، يقول الاميلي "... فانتهب اللمطيون القسارية وحوانيت العطارين ووقع الحرب بين الأندلس واللمطين بسبب ذلك ثمانية أيام..." [187].

فهل يكمن السبب في احتكار الأندلسيين للتجارة بفاس أيضا ؟.

- **الجانب السياسي**

تميز العنصر الأندلسي برفضه الدائم للخضوع لأية وصاية أو سلطة سياسية، فقد كان طموحه السياسي واضحا في كل المناطق التي استقر بها، ففي تطوان استغلوا موت أحمد بن عيسى النقسيس وقاموا على ورثته. ويورد لنا هارسون نصا عن عدم رغبتهم في الخضوع لأولاد النقسيس. يقول : " إن حالة تطوان تزداد تطورا من

---

(186) — Ibidem

(187) – القادري، نشر المثاني... م،س ، ج1. ص :336.

حين لآخر فقد ذبح الأندلسيون في مرة واحدة ثلاثة من المقدمين ثم إن أحد الأندلسيين يدعى بو علي انحاز إليه الباقون قائلين أن أسلافهم كانوا حكام المدينة فيما سبق وظلوا كذلك إلى أن كان والي هؤلاء المقدمين وهو النقسيس البربري أو الجبلي الذي جمع حوله الناس بالقوة والخداع فاغتصب السلطة منهم"[188].

وفي الرباط فقد شكل الإعلان عن تأسيس جمهورية أبي رقراق والاستقلال عن السلطة السعدية حدا فاصلا بين الفئتين، وقد زاد من تعميق الأزمة محاولتهم ربط علاقات مع دول أوربية بل والتفاوض معها من أجل تسليم القصبة[189] مقابل تحقيق مصالحهم.

أما في فاس فإننا لم نسجل وجود أي محاولة للاستقلال أو الاستئثار بالسلطة في هذه الفترة (القرن 11 هـ/ 17م) بل تعود محاولتهم الأولى إلى ثورة الريض واستقرار أهل الأندلس بفاس حيث قام أحدهم يدعى عبد الرزاق الفهري الخارجي على علي بن عمر بن إدريس، يقول ابن أبي زرع "...واستقام له الأمر إلى أن خرج عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي وكان من أهل وشقة من بلاد الأندلس، فقام بجبال بويبلان من أعمال فاس على مسافة يوم ونصف منها فاتبعه خلق كثير من البربر من مديونة وغيرهم فبنى قلعة منيعة

---

(188) - S.I.H.M. 1ere série Angleterre ,T 3 , p : 27-28

(189) - عن الاتفاقية بين الإسبان والمورسكيين انظر:

Colin . G, Projet de traite entre les morisques de la Casbah de rabat et le Roi d' Espagne en 1631 in Hesp T.XLII 1er trimestre,1955,P :21-25.

بجبل سهل بجوار مديونة وأسماها وشقة باسم بلده[190] " بل إنه تمكن من هزمه والدخول إلى فاس.

- **الجانب الاجتماعي**

يقول محمد قشتيليو "كان الأواخر من المورسكوس يعاملون معاملة سيئة حتى من قبل المغاربة لأنهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق النصارى وكانوا يتعاطون الخمر ويأكلون لحم الخنزير ونساؤهم تخرجن سافرات، الشيء الذي لم يرق المغاربة فكانوا بهذا يلاقون معاملة سيئة ونفورا من المغاربة بخلاف المهاجرين الأولين فقد كانوا على حالتهم الإسلامية الصرفة، فلم يعانوا ما عانى الأواخر وخاصة أنه كان من بينهم علماء أجلاء استفاد منهم المغرب"[191].

لقد كان الاختلاف في السلوك الاجتماعي بين الفئتين هو السبب في نشوء هذا النفور، فصاحب "الإتحاف الوجيز" يصف لنا أهل سلا مثلا بقوله كانوا على غاية تامة من المحافظة على مكارم الأخلاق وحسن الشيم واتباع السنة والورع التام في المأكل والمشرب والقناعة بالإقلال وعدم الافتخار بالجاه والمال..." [192] وهي صفات

---

[190] – ابن أبي زرع ، روض القرطاس، ... م. س ، ص : 78 – 79.

[191] – قشتيليو، محنة المورسكوس... م. س ، ص : 6.

[192] – الدكالي محمد بن علي الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين، تحقيق مصطفى بوشعرة، ، منشورات الخزانة الصبيحية ، مطبعة النجاح الجديدة ، 1986 ص : 43.

تناقض صفات الطرف الآخر ، فقد حمل الأندلسيون معهم العادات والتقاليد المكتسبة من إسبانيا ، وحملوا معهم سلوكا دينيا معينا نتج عن ممارسة القمع عليهم طيلة سنوات متعددة من قبل محاكم التفتيش، وهو سلوك يعتمد أساسا على الجوهر عوض المظهر لأن هذا الأخير موضوع أساسا لإيهام الإسبان بأنهم مسيحيون، وهذا ما جعلهم موضع شك من لدن السكان المحليين حيث أصبحوا ينعتونهم بنصارى قشتالة[193].

لقد كان للوضعية التي عاشها المغرب في بداية القرن 11هـ/17 م آثارها البالغة في جعل الاندماج الموريسكي في المجتمع المغربي يتسم بالصعوبة، مما أدى إلى انعزال هذه الأقلية في مناطق معينة، لكن بالرغم من ذلك استمر تأثيرهم بحكم إرثهم الثقافي والمتحضر، خاصة على المستوى الاجتماعي فأين يتجلى ذلك؟ وما هي مجالات تأثيرهم على المجتمع المغربي؟

[193] - Bargach Mohamed, une famille au cœur de l' histoire édition Maghribines, Casablanca, 1988,p : 16

الباب الثاني : التأثيرات في المجتمع المغربي

الفصل الأول : مقومات الشخصية الأندلسية

1.. اللغة

يعتبر التأثير اللغوي من أبرز عمليات التواصل بين العنصر المغربي والأندلسي، واحتفظت لنا المصادر الأندلسية خاصة بإشارات تصف لنا فصاحة الأندلسيين. يقول ابن الخطيب : "وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب كثير وتغلب عليه الإمالة"[194].

إن النص على قصره وضآلة حجمه يقدم لنا معطيات في غاية الأهمية، تتمثل في سيادة اللغة العربية وذيوعها دون منازع، وهذا ما يؤكد أنها كانت لغة التواصل الاجتماعي والمعرفي حتى إن السلطة المرينية نهجت سياسة التعريب خاصة في مجال الدين، حيث كانت الخطب تلقى بالبربرية في عهد الموحدين، ثم يشير النص إلى تسرب الغرب إلى هذه اللغة أي الأسماء والمصطلحات التي تنتمي إلى لغات ولهجات العناصر البشرية المتنوعة والمتساكنة، مما يدل على التلاحم والتمازج بين هذه العناصر، لكن الأمر تغير بعد سقوط

---

[194] – ابن الخطيب لسان الدين، "الإحاطة في أخبار غرناطة" تحقيق محمد عبد الله عنان، ط 1 ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ج 1، ص : 134.

غرناطة وأصبحت اللغة العربية في تراجع لتزايد المصطلحات الإسبانية الدخيلة وتفاقم الأمر عندما قامت السلطة الإسبانية بمنع تداولها تماما كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الباب الأول، فأصبح لزاما على المسلمين الأندلسيين الكتابة والحديث باللغة القشتالية كما يقر بذلك الفقيه عيسى بن جابر في القرن التاسع الهجري والخامس عشر ميلادي ذاكرا الأسباب التي دفعته إلى كتابة مجموعة من الكتب في الفقه والسنة باللغة الإسبانية وقال "...إن مسلمي قشتالة بسبب خضوعهم الكبير وبسبب الضرائب العالية والعناء المفرط شيئا فشيئا ضاعت منهم الممتلكات والمدارس واللغة العربية، ونظرا إلى هذا الخصاص طلب مني أصدقائي بكل عطف وإلحاح كبير منهم خصوصا المورعين الكرماء، والتمسوا مني باستعطاف بالغ أن أجمع باللغة الرومانسية كتابا مختصرا حول فقهنا والسنة، وكذا كل ما يحتاج المسلم الصالح ويعمل به وهكذا لم يكن لي بد إلا أن أقبل هذا الطلب"[195]. وقد كان الموريسكيون يعبرون عن أسفهم الصريح لاستعمالهم اللغة الإسبانية لشرح تعاليم الدين الإسلامي الذي لا يمكن شرحه إلا باللغة العربية. يقول أحدهم : "... لا أحد من بني قومنا يعرف اللغة العربية التي نزل

---

[195] – بوزينب الحسين، أين نحن وأين الآخر مع الموريسكي ؟، مقال بمجلة المناهل، ع. 66 – 67، 2002، ص : 281- 282 نقلا عن مصادر إسبانية.

بهـا القـرآن الكـريم ولا يفهمـون حقـائق الـدين ولا يـدركون سمـوه الحقيقـي دون اللجـوء لشـرحها بلغـة أجنبيـة كلغـة هـؤلاء الكـلاب المسـيحيين طغاتنـا ومضـطهدينا دمـرهم الله، لهـذا أطلـب المعـذرة لمـن يقرأ ما كتب بـالقلوب، علمـا أن نـيتي مـا هـي إلا فـتح طـريق النجـاة للمـؤمنين المسـلمين حتـى ولـو كـان باسـتعمال هـذه الوسـيلة الحقـيرة والدنيئة"[196]، ونفس الأسـف يعـرب عنـه مورسـكي آخـر بقولـه : "... لكونـه مكتوبـا بـالحرف المسـيحي يطلـب ويلمـس أن لا تحـط قيمتـه لاستعماله ذلك الحـرف ، بل على العكس يجب الرفـع مـن شـأنه لأن وجـوده مكتوبـا بهـذه الطريقـة يظهـر جليـا للمسـلمين الـذين يعرفـون قراءة الحـرف المسيحي ولا يعرفـون قـراءة حـرف المسـلمين. وقـد أكـد النبي محمـد ﷺ أن أحسـن اللغـات تلـك الـتي تفهـم[197]. وقـد نـتج عـن هـذا الاضـطهاد المسـتمر للغـة العربيـة ظهـور مـا أصـبح يسـمى حاليـا بالأدب الأعجمي. وقد ظـل هـذا الـزخم الهـائل مـن الـتراث المورسـكي مجهـولا إلى غايـة القـرن الماضـي حيـث تم اكتشـافه مـن قبـل بـاحثين إسبان[198].

---

(196) – نفسه ص : 282.

(197) – نفسه.

(198) – بوزينب الحسين، اللغة المورسكية المسماة بالعجمية ضمن ندوة أعمال البحث اللساني والسميائي، الرباط، .1981 ص : 109– 110.

من خلال ما سبق يمكن أن نقسم التأثير اللغوي الأندلسي إلى مرحلتين الأولى قبل سقوط غرناطة وبعدها بقليل ثم مرحلة ثانية والتي أدت إلى انتشار اللغة الإسبانية وهي التي توافق الطرد الموريسكي الأخير، بل إن المرحلة الأولى عرفت هي الأخرى دخول مجموعة من الكلمات الإسبانية عن طريق تخريجات بعض الأزجال والموشحات.

فبالنسبة للمرحلة الأولى تميزت بانتشار العامية الأندلسية. فقد جاء في ترجمة أحمد المنجور أنه كان مولعا بأمثال العامة خصوصا عامة الأندلس يستحسن لغتهم ولكنتهم ويثني عليهم وعلى بلادهم الجزيرة ويستحسن ويتشوق إليها..." [199].

وقدر الأستاذ بنشريفة أن قسما كبيرا من الأمثال الأندلسية الواردة في مجموعة الزجالي ما تزال مستعملة في حواضر المغرب وبواديه[200]. وقد أقر ابن خلدون هو الآخر بتميز لغة الأندلسيين عن لغة كل من المشارقة والمغاربة[201].

---

[199] – الزجالي أبي يحي، أمثال العوام في الأندلس، دراسة محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس فاس، 1975، ج 1 ص : 189 نقلا عن سلوة الأنفاس.

[200] – نفسه.

[201] – ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، ط 2، المكتبة العصرية، بيروت، 2000، ص : 558.

أما فيما يخص الإمالة[202] فقد جاء في ترجمة فرج الأندلسي عند ابن عسكر أنه تغلب عليه الإمالة شأن كلام الأندلس في ألسنتهم..." [203] ومما يدل أيضا على انتشار الظاهرة بالمغرب هو أن الحسن اليوسي عاينها بنفسه عند قبائل بني زروال شمال مدينة فاس، وعند قبائل أخرى شمال المغرب[204]. وعموما تمتاز العامية الأندلسية بما يلي:

- استعمال النون للمتكلم المفرد بدل همزة المضارعة، كما تستعمل النون لجماعة المتكلمين مع التفريق بينهما بزيادة الواو في حالة الجمع وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا عند الحجري، نمشي = أمشي، نخرج = أخرج، نجلس = أجلس[205].

وما يزال هذا الاستعمال موجودا أيضا بالمغرب.

---

(202) – الإمالة هي إبدال الألف ياء، وقد تحدث عنها الملزوزي عندما مر بإمام يصلي بالناس وهو يقرأ بـ:

(قل أعوذ برب الناس) قد بدل الوسواس بالوسويس   وكذلك الخناس بالخنيس
وكذلك بدأ به من آيات   حتى يوسوس في صدور النيس

(203) – عسكر بن محمد، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر تحقيق محمد حجي، ط 2 مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977 ص : 79.

(204) – اليوسي الحسن، المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق محمد حجي ومحمد الشرقاوي إقبال. دار الغرب الإسلامي بيروت 1982 ،ج 1 ص : 166.

(205) – الحجري، ناصر الدين، م.س ، ص : 3 – 20 – 23.

- حرف الجر يرد في الغالب متصلا بالمجرور بعد حذف الياء منه وفتحه مثل فالجبل = في الجبل[206].

- تمتاز العامية الأندلسية أيضا بزيادة كاف أول الفعل المضارع فيقال في: يكتب = كيكتب[207].

- حافظت العامية الأندلسية ببعض الأبنية والصيغ ومن أمثلة ذلك المحافظة على كسر عين اسم الفاعل في مثل : زايد، ناقص، جالس، واقف[208].

- التصغير من سمات العامية الأندلسية الواضحة، ففي الأمثال والأزجال نلحظ شغف الأندلسيين وولعهم باستعمال التصغير في كلامهم. وما يزال الميل إلى التصغير سمة بارزة في اللغة الإسبانية ولهجات المغرب، ومن نماذج بعض الكلمات المصغرة خبيزة، قديرة، كعيكة، ... لقد ذهب دوزي إلى أن هذا التصغير ظهر عند عامة الأندلس بعد أن فقدوا السليقة اللغوية تماما ووقعوا تحت تأثير الإسبانية[209]، وهذا غير صحيح لأن التصغير كان معروفا في أوج الحضارة الأندلسية، أضف إلى ذلك أن التصغير قد يُراد به إما

---

(206) – الزجالي، أمثال العوام، م.س، ص : 285.

(207) – نفسه، ص : 286.

(208) – نفسه، ص : 288.

(209) – دوزي رنهارت، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، 1980، العراق، ج 1، ص : 706.

التمليح أو التقبيح؛ بل يمكن القول إن الإسبانية هي التي أثرت بصيغة التصغير، بدليل أن اللغة الإسبانية هي اللغة التي توجد بها مستويات التصغير، أي تصغير التصغير عكس باقي اللغات الأوربية كالإنجليزية والفرنسية... تقل فيها هذه الصيغة ولا توجد فيها مستويات للتصغير.

أما المرحلة الثانية فقد عرفت انتشار اللغة الإسبانية خاصة بعد وصول الوفود المورسكية إلى المغرب، فقد سجل لنا الأسير مويط في رحلته انتشار اللغة الإسبانية أثناء حديثه عن سيدته يقول "... وسيدتي... التي كانت شابة جميلة جدا تتكلم اللغة الإسبانية بطلاقة"[210]، والشيء نفسه أكدته دراسة دومنيقير حيث وجود معرفة باللغة الإسبانية في بلاط السلطان المغربي تتعدى كبار رجال الدولة إلى عدد لا يستهان به من العامة"[211]، حتى إن المورسكيين وجدوا صعوبة في الاندماج بسبب جهلهم للغة العربية خاصة أولئك الذين توجهوا إلى تونس، وهو ما جعل القائمين على أمورهم الدينية من بني قومهم يلجأون إلى تعليمهم الدين الإسلامي باللغة والحروف التي كانوا يعرفون. وقد استفتى شاعر مورسكي مجهول الاسم في ذلك أحد الفقهاء الذين استقبلوهم وسهلوا مقامهم بهذه الأراضي

---

(210) – مويط جرمان، رحلة الأسير مويط، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار المناهل للطباعة والنشر، 1990، ص : 23.

(211) – دومنيقير، تاريخ مسلمي الأندلس... م.س، ص : 278.

وهو الصالح سيدي بولكايز Citi Boulgaiz، لأنه تخوف من عدم ملاءمة تعاليم الإسلام مع كتابة أموره بالحروف الإسبانية، وقد أجاب الفقيه بالإيجاب والرضى واعتبر أنه عمل مقبول جدا[212].

ورغم أن أغلب الموريسكيين كانوا يتقنون الإسبانية فإن منهم من كان لا يتقنها أو كان يجهلها تماما، كما هو الحال بالنسبة لموريسكيي هورناتشوس فقد احتفظوا بلغتهم الأصلية أي العربية وكانوا يفضلون الكلام بها[213].

هذا وعربية الموريسكيين أنفسهم لا تختلف كثيرا عن الدارجة المغربية فخصائصها الصوتية العربية تكون في بعض الأحيان الحد الأوسط في التطور من العربية الفصحى إلى العربية الدارجة المغربية على المستوى الصوتي مثل :

عربية فصحى	أعجمية موريسكية	الدارجة المغربية
قَصْرْ	قَصَرْ	قْصَرْ
تَمْرْ	تَمَرْ	تْمَرْ
وَحْدهُمْ	وَحَدَهُمْ	وَحَدْهُمْ
فَجْرْ	فَجَرْ	فْجَرْ

(212) – بوزينب الحسين، اين نحن واين الآخر... م،س، ص : 282 – 283.

(213) – كواندرو روجي، قراصنة سلا، ترجمة محمد حمود، مطبعة أمنية، الرباط، 1991، ص : 32 .

وأحيانا نجد أن بعض الأشكال ما زال الاحتفاظ بها في المغرب كعصر (العربية الفصحى) وعصر (الأعجمية) في تطوان ونواحي أخرى من الشمال المغربي[214].

وعموما كان التأثير اللغوي الأندلسي – الموريسكي واضحا وخاصة تسرب مجموعة من الكلمات الإسبانية إلى العربية المغربية. وقد زاد من هذا الأمر انتشار عمليات الترجمة[215]، خاصة من اللغة الإسبانية إلى العربية والتي تزعمها الشهاب الحجري بترجمته لمجموعة من المؤلفات من بينها كتاب "العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع". وقد جاء أسلوب الترجمة واضحاً سهلاً تتخلله تعابير عامية، ومن حسن الحظ أن هذه الترجمة تمت بتعاون بين المؤلف والمعرب الذي كان كلما أشكل عليه شيء في النص الإسباني، يرجع إلى المؤلف ليستوضحه ثم يثبت الترجمة طبق تفسيره[216]، ثم الترجمة الثانية تمثلت في الرسالة الزكوطية، وتهتم ببعض الأمور الفلكية وترجمها هي الأخرى عن اللغة الإسبانية[217].

[214] – بوزينب الحسين، اللغة الموريسكية... م،س، ص : 111.

[215] – المنوني محمد، ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، دعوة الحق، العدد 3 ، السنة العاشرة يناير 1967 ص : 74 إلى 91.

[216] – نفسه، ص : 83.

[217] – نفسه، ص : 85– 86.

هذا وقد تضمنت بعض الكتابات المغربية إبان هذه الفترة أو بعدها العديد من المصطلحات والكلمات الإسبانية، ونخص هنا بالذكر كتب الرحلات التي كانت وجهة أصحابها شبه الجزيرة الإيبيرية مثل رحلة محمد بن عبد الوهاب الغساني[218]، المعروفة برحلة الوزير في افتكاك الأسير، ثم رحلة ابن عثمان المكناسي[219] الإكسير في فكاك الاسير، وكلتا الرحلتين تضمنت مصطلحات وكلمات إسبانية.

والآن نورد نماذج لمجموعة من المصطلحات الإسبانية[220] التي دخلت إلى العامية المغربية وذلك حسب مجموعة من الميادين والمجالات.

❖ في مجال الألبسة والأفرشة

اللفظ باللهجة المغربية	مقابله بالفصحى	اللفظ الإسباني
بْلُوزَة	لباس	Blusa
كَبُّوطْ	معطف	Capote

[218] – الغساني محمد بن عبد الله، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، نشر وتعليق ألفريد البستاني. منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو، تطوان، 1940 .

[219] – المكناسي محمد بن عثمان، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1965.

[220] – للإشارة فإن هناك العديد من الكلمات التي دخلت في الفترة الموريسكية ومنها ما دخل مع فترة الاستعمار الإسباني كما أنه اعتمد في إيراد هذه المصطلحات على بعض كتب الرحلات كالصفار الغساني، وابن عثمان المكناسي ثم بعض المعاجم مثل (كولان)، وبعض الكلمات التي أوردها أيضا رزوق.

المَارْيُو	خزانة الملابس	Armario
صَنْدَلَة	نعل	Sandala
سَبَّاطْ	حذاء	Zapato
ضَبْلُونْ	(عُمْلَة) نقد إسباني وهو نوع من الحلي تستعمله النساء	Dablon
بَطَّانِيَة	غطاء من القطن	Banitan
مَانْطَة	لحاف	Manta
الكَنَابِي	سرير من خشب	Canapé

❖ في مجال المواصلات والنقل

اللفظ باللهجة المغربية	مدلوله بالفصحى	اللفظ الإسباني
بَابُورْ	باخرة	Vapor
كَارُّو	عربة	Carro
كُوتْشِي	كدش عربة	Coche
الرويدَة	عجلة	Rueda
الكَالَة	حجرة توضع أمام العجلة أو خلفها كي تثبت في مكانها	Cala

❖ في مجال الطبخ وأدواته

اللفظ باللهجة المغربية	مدلوله بالفصحى	اللفظ الإسباني
كشينة	مطبخ	Cocina
لاَمْبَة	مصباح	Lampara
كُومير	فِعل أكل والأكل (comida) والمغاربة يحصرونه في الخبز	Comer (el pan)
لاَطَة	علبة من الحديد	Lata
لويزَة	نبات يستعمل في الشاي	Luisa
فريشك	طري	Fresto
سوبَة	حساء	Sopa
بوقة	نوع من السمك	Buga

❖ في مجال اللهو والموسيقى

اللفظ بالدارجة المغربية	مدلوله بالفصحى	اللفظ الإسباني
كيطارة	آلة طرب تشبه العود	Guitarra
بنديز	دف	Bendera
كانتينا	حانة	Cantina
كارطة	ورقة اللعب	Carta
طابة	تبغ	Tabaco
گـارُو	سيجارة	Cigarro

❖ في المجال التجاري والدبلوماسي والصناعي

اللفظ الإسباني	مدلوله بالفصحى	اللفظ بالدارجة المغربية
Embajador	سفير	باشدور
Compania	شركة	كمبانية
Duro	نقد إسباني	دورو
Dablon	"	ضبلون
Solde	"	سولدي
Marca	نوع	ماركة
Factura	فاتورة	فاكتورة
Fabrica	مصنع	فابريكا
Maquina	آلة	ماكينة

❖ في المجال العسكري

اللفظ الإسباني	مدلوله بالفصحى	اللفظ بالدارجة المغربية
Guerra	حرب	كيرة
Runa	تخريب (خراب)	الروينة
Culata	بندقية	كلاطة
Corneta	مزمار يستعمل في المجال العسكري	كورنيطة
Bandera	علم	بنديرة

❖ في مجال الأماكن والأشكال

اللفظ بالدارجة المغربية	مدلوله بالفصحى	اللفظ الإسباني
براكة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza
صالة	قاعة فسيحة	Sala
فرساطة	واجهة البناية	Facharda
فورمة	شكل	Forma

❖ في مجالات أخرى

اللفظ بالدارجة المغربية	مدلوله بالفصحى	اللفظ الإسباني
كانا	رغبة	Guarra
سويرت	حظ	Suerte
فالصو	زور، باطل	Fal so
سيمانة	أسبوع	Semana
فرايلي	راهب	Fraile
بانيو	مغطس قاعة الحمام	Bano
كاسطة	صحيفة	Gaceta
مانيرة	طريقة	Manera
قرجوطة	حنجرة	Garganta

2. الطبخ

الطبخ ظاهرة ثقافية واجتماعية تداولتها الأمم والشعوب والأجيال، ويصبو إلى معرفته كل فرد وبه تصح الأبدان وتكتمل الأفراح، وقد قيل: "أرني مطبخ أية أمة أحدثك عن حضارتها" ومن هذا المنطلق فهو يشهد على مستوى الرقي الإنساني والإبداعات في الحياة اليومية من اختراع في المأكل والمشرب وتفنن فيهما وتكييف مع الطبيعة.

والبحث في مثل هذه المواضيع من الأمور الجيدة التي تكشف لنا عن التكامل والتفاعل بين المحلي والمستورد كما يكشف أيضا عن بقايا الحضارات السابقة وآثار الوفود العابرة وتفاعل العنصر البشري في بوثقة الحضارة بصفة عامة.

كثيرة هي صنوف الطعام وأساليب الطبخ التي تفنن وبرع فيها الأندلسيون. وقد كانت لهم عناية بتدوينها في كتب خاصة، عكس ما نجده عند المغاربة الذين لم يدونوا كيفية وطريقة تهييء بعض الأطباق، إلا ما جاء في كتب الرحالات وكتب التصوف أو التراجم وغيرها من الكتب غير المتخصصة، وقد استفاد الأندلسيون من بيئتهم التي كانت عبارة عن مزيج بين مجموعة من الحضارات.

وبإلقاء نظرة على كتب الطبخ نجدها تتضمن أطباقاً ووصفات متنوعة ومعقدة في بعض الأحيان تتطلب الوقت، كما أن

هذه الأطباق- في واقع الأمر- ليست موجهة إلى العموم بقدر ما هي موجهة إلى نخبة المجتمع باستثناء البعض منها، كالعصيدة التي مثلت الغذاء الأساسي للطبقات الشعبية[221].

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن الطبخ الأندلسي وصل إلى ما وصل إليه بفضل ما قدمه زرياب للأندلسيين، فقد علمهم طرائق الطعام الأكثر تعقيدا في المطبخ البغدادي ودربهم على كيفية إعداد وجبات راقية، ثم تقديم الطعام بكيفية منظمة[222]، هذا ولم يفت الأندلسيين التوفيق بين الوجبات الغذائية والشروط الصحية فيها[223].

وإذا كانت الأطر المرجعية التي حملها الأندلسيون الأولون قد تلاشت واندمجت مع أطر باقي المجتمعات التي دخلت المغرب في نفس الفترة فإن خاصيات الأندلسيين الذين دخلوا المغرب عقب سقوط غرناطة فما بعد قد بقيت حية، ذلك أن أصحابها قد حملوا معهم إلى المغرب ألوانا من الثقافة ومن المعاملات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة.

---

(221) – بيريس هنري، الشعر الأندلسي... م. س. ص : 281.

(222) – ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، ص : 56.

(223) – ابن زهر أبو مروان عبد الملك، النشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو (كتاب الأغذية)تحقيق محمد أمين الضناوي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

لقد جلب هؤلاء المورسكيون معهم العديد من أنواع المأكولات والحلويات التي ما يزال العديد منها يحضر في المناسبات الدينية والعائلية لدى العديد من العائلات الأندلسية العريقة. وفي هذا الموضوع - أي الطبخ الأندلسي – وجدنا بعض المراجع على شكل دراسات وتحقيقات قام بها بعض الباحثين لكنها غطت فترات متعددة من التاريخ المشترك للعدوتين الأندلس والمغرب، دون التطرق إلى الفترة التي تهمنا وهي القرن 10 و11هـ/ 16 و17 م، ونذكر من بين هذه المصادر كتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان لابن رزين التجيبي الذي حققه الأستاذ محمد بن شقرون، والذي أفادنا أيضا بمعلومات مهمة عن التأثير الأندلسي في الطبخ المغربي في العصر المريني وبعده، أما فيما يخص الفترة السعدية وبعدها فإننا لم نعثر على أي مصدر أو مخطوط أو مرجع يتحدث عن الطبخ المورسكي سواء بسلا أم بتطوان أم فاس وغيرها من المدن المغربية التي استقرت بها الجاليات الأندلسية المتأخرة في القرن السابع عشر. ولعل مرد ذلك إلى كون المورسكيين لم يدونوا شيئا عن الطبخ خلال هذه المرحلة، وذلك لجهلهم الكتابة خاصة باللغة العربية، وتراجع مستواهم الفكري باستثناء بعضهم، وربما دونوا ذلك بالأعجمية ولا زالت كتابتهم لم تكتشف بعد.

وعموما فقد كان تأثير الأندلسيين في مجال الطبخ على المغاربة واضحا كاستعمال كثرة التوابل على اعتبار أن هذه المواد

تساعد على عمليات الهضم علاوة على ما فيها من تنبيه للحواس[224].

وسنحاول الآن جرد بعض الأنواع من الأطباق وأنواع الطبيخ والحلويات الأندلسية منها ما كان يحضر قبل هذه الفترة وما يزال ومنها ما أدخله الموريسكيون، أي أننا لم نجد له حضوراً في كتب الطبخ، والأجدر بنا أن نذكر هنا تلك الأطباق التي ما يزال حضورها في المطبخ المغربي إلى وقتنا الحاضر وذلك بفضل التأثير الموريسكي الذي تجدد مع وصول هؤلاء بعد نفيهم الأخير.

❖ **البسطيلة:** أرجع دوزي أصلها إلى الاسم الإسباني (Pastel) [225] وهي عبارة عن فطائر محشوة بخليط من لحم الحمام المهروس والبيض بنكهة الليمون والعسل إضافة إلى الزيت واللوز المفروم، ولم يعرف المغاربة هذا النوع من المأكولات إلا بعد اتصالهم بالأندلسيين الذين أخذوه بدورهم عن الإسبان[226]، فأصبح بعد ذلك يحتل مكانة مهمة ضمن الأطباق المغربية.

❖ **البايلة:** ترجع إلى الكلمة الإسبانية (Paila) وهي طعام مصنوع من بقايا الأطعمة، ويقال إنها محرفة عن كلمة الباقية[227] لأنها قطع من السمك والدجاج واللحم مما يتبقى من الأطعمة.

---

(224) – التازي عبد الهادي،التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مطابع فضالة المحمدية، 1986، ج 2، ص : 317

(225) – دوزي رينهارت، تكملة المعاجم ... ، ج 1، ص : 341.

(226) – السايح الحسن، الحضارة المغربية...م. س ، ص : 68

(227) – نفسه.

❖ **التفايا:** وهو مما أخذه الأندلسيون عن زرياب[228]، ولا زال هذا النوع من الطبيخ يتخذ في المغرب من اللحم والتوابل والماء والكزبرة والزيت. وهو نوعان التفايا الخضراء وتكون فيها الكزبرة طرية بينما تكون جافة في التفايا البيضاء[229].

وقد أرجع محمد شفيق من جهته أصل هذا الطبق إلى الأصل الأمازيغي، يقول: "التفاية أكلة مغربية يظن أن اسمها أندلسي، تيفيا معناه اللحم ومفرد، تيفيي والواقع أن المادة الأساسية في أكلة التفايا هي قطع اللحم، وفي الجهات الأندلسية أسماء أخرى من أصل أمازيغي أسماس تامغرا..." [230]، لكن من خلال ما أورده لنا المقري يتضح أن المجتمع الأندلسي لم يعرف هذا النوع إلا مع دخول زرياب ومن ثمة لو كان الأصل أمازيغياً كالكسكس لدخل قبل زرياب إلى الأندلس.

❖ **المروزية:** وهي من المأكولات الأندلسية، ولها علاقة بمدينة مرو (بلاد فارس)[231]، وهي تحضر باللحم الفتي السمين مع الزيت والملح والفلفل والكزبرة اليابسة والكمون وحمص مبلول ولوز مقشور وحبات ثوم بالإضافة إلى قليل من البصل

---

[228] – المقري، نفح الطيب، ج 3 ، ص : 127.

[229] – دوزي رينهارت، تكملة المعاجم ، ج 2، ص : 41.

[230] – شفيق محمد ، الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1999، ص : 86.

[231] – التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي... م. س، ص : 312 .

يستعمل مع الإهليج (البرقوق) والزبيب، لذلك فهو طبق معسل غني بالتوابل، ولا يزال هذا النمط من الأطباق معروفا بالمغرب ويحضر خاصة في عيد الأضحى، وطرأ على طريقة تحضيره بعض التغيير، فسميرس[232] تقدم لنا وصفة مخالفة عن تلك التي يقدمها ابن رزين[233]، ففي الطبق الأول نجد وجود الحمص المبلل، ثم إن هذا الطبق غير محدد بزمن معين لإعداده. على عكس الوصفة الثانية، حيث نجد غياب الحمص ثم الثوم ثم ارتباطه أيضا بعيد الأضحى.

❖ **الخليع** : يهيأ من لحم المعز والغنم السمين ويمكن حفظه لسنة أو سنتين. ولعل هذا النوع من الأطباق كان يهدف إلى الحفاظ على اللحم من الإتلاف والضياع، وقد برعت الأسر الأندلسية في إعداده، بدليل أننا لازلنا نرى بعض العائلات العريقة تعده لحد الآن، ويورد لنا محمد داوود مجموعة من الإشارات التي تشير إلى إرسال قائد تطوان آنذاك اشعاش إلى السلطان العلوي عبد الرحمان الخليع. يقول محمد داود: "وعلى عادته القائد اشعاش مع الدار السلطانية بعث إليها هذه المرة ثلاثين من الأواني مملوءة بالخليع مع صناديق مملوءة بالحلوى الأندلسية والجزائرية التي

---

[232] – بناني سميرس لطيفة، الطبخ المغربي، بشركة النشر والتوزيع المدارس، البيضاء 1998 ، ص : 121.

[233] – ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984 ص: 98-99.

كانت تطوان تتقنها وتتفنن في صنعها"[234]. مما يدل على براعة العائلات المورسكية التطوانية في إعداد هذا النوع من الأطباق.

وفي باب الحلويات تكثر الأنواع وتتعدد الأشكال التي ما زال الطبخ المغربي يحتفظ بها إلى الآن. ومن بينها نجد:

❖ **الإسفنج**: يصنع من الدقيق المقلي في الزيت، وهو شبيه بالإسفنج المتولد في قعر البحار من حيث الرخاوة والشكل، ويتخذ كما قلنا من الدقيق الأبيض الذي يعجن بالماء الفاتر عجينا قويا ويسقى بالماء قليلا قليلا حتى يصير خفيفا ويرفع كله في أثناء عجنه عن المعجنة باليدين، وينزل بسرعة حتى يخرج منه الريح ويترك يختمر ثم توضع على النار مقلاة من نحاس أو حديد بمقدار معلوم من الزيت، فإذا غلى الزيت أخذ من العجين باليد اليسرى وشددت عليه الكف حتى يخرج بعضه فوق الابهام والسبابة ويقطع قطعا ويوضع منها في المقلاة، فإن نضجت يتم إخراجها واستعمالها، ولم يطرأ أي تغيير واضح على طريقة تحضير هذا النوع أو حتى في الاسم، وقد أورد لنا الحسن الوزان[235] أنه كان بسوق الدخان حوالي 15 دكان للسفاجين يبيعون يوميا كميات كبيرة من الإسفنج وأنواعا أخرى من الفطائر، ويعتبر صنع

---

[234] – داود، تاريخ تطوان ... م. س ، م 8 ، ص : 110 ، وينظر كذلك صفحات 119 – 323.

[235] – الوزان الحسن، وصف إفريقيا م. س ، ج 1، ص : 186.

الإسفنج إلى اليوم من العادات التي ما تزال شائعة في بعض مناطق المغرب بل إنه يباع يوميا في الأسواق.

❖ **آذان القاضي**: ضرب من الحلوى معروف عند الأندلسيين يعمل عن طريق عجن دقيق الدرمك بماء وزيت دون خميرة ثم يمد منها قريصات رقاق تكون سعتها الكف أو أكثر وتطوى طيتين، وتفتح حواشيها وتقلى بعد أن يدخل فيها عيدان رقاق حتى لا تغلق الأطراف فإذا قليت صنع حشو من الفستق أو من اللوز والسكر ويعجن بماء الورد ويحشى به الآذان. وأطلق على هذا النوع من الحلوى اسم آذان القاضي لأنه يشبه الآذان في طريقة صنعه[236]، وأما إضافته للقاضي فاتباعا لنوع آخر من الحلوى يعرف عند المشارقة بلقمة القاضي[237]، وما زال هذا اللون من الحلوى معروفاً في بعض المناطق المغربية، وذكر ابن رزين في كتابه اسم حلوى بآذان محشوة فربما يكون هذا النوع لما عرف من تبادل ثقافي بين المشرق والمغرب.

❖ **الزلابية (أو الشباكية)**: ضرب آخر من الحلوى معروف عند الأندلسيين وهي تحريف للزريابية[238] لأن زرياب هو

---

(236) – عن طريقة تحضير هذا النوع من الحلوى انظر رجب عبد الجواد، ألفاظ المآكل والمشرب في العربية الأندلسية، دراسة في نفح الطيب، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص : 32.

(237) – ذكر ابن زين هذا النوع، فضالة الخوان... م. س، ص : 66.

(238) – التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي... م،س، ص : 316

الذي أدخلها إلى الأندلس، وتصنع من عجين الدرمك وتجعل في إناء مثقوب القعر ثم يجعل الأصبع على الثقب ثم ينصب القالي يده على المقلاة ويزيل أصبعه فيجري العجين من الثقب في المقلاة ويصور من العجين جواشم وشباكا وغير ذلك على عادة ما جرى عند الأندلسيين في عملها، فإذا انتهى القالي أزيلت رغوته وقطر سريعا من الزيت وغمس في عسل مغلى حتى تستوي في حقها من العسل ثم تزال منه وتوضع على لوح أو شباك. وما زال هذا النوع منتشراً في المغرب وإن كان عرف تطورا مهما، ويعرف استهلاكا كبيرا خاصة في شهر رمضان.

❖ **السنبوسك** : ضرب من الحلوى عرف أيضا عند أهل الأندلس. أما طريقة تحضيره فمن السكر بعد حله في الماء ثم إضافة اللوز وتركه على النار ثم إضافة اللوز المقشور المهشم وقرنفل وزنجبيل بعد ما تحل هذه العقاقير في مسحوقه في ماء ورد، فيه قليل من الكافور والمسك ويعجن الجميع حتى يمتزج ويلتحم، ويعمل منه أقراص غليظة كروية الشكل على قدر الكف، وهناك نوع آخر من السنبوسك محشو باللحم في إفريقيا لكن ابن رزين فضل الأندلس منه[239] ولعل مصطلح السنبوسك عرف تطورا

---

[239] – ابن رزين، فضالة الخوان... م. س، ص : 251.

أو تغيرا فهو المعروف عند المغاربة حاليا بالبريوات[240] الذي ما زال معروفاً لحد الساعة ومنه المحشو وغير المحشو.

❖ **المجبنات**: تعتمد المجبنات على دقيق الدرمك الذي يعجن ويعرك جيدا بحيث يشبه السفنج لكن يضاف إليه دائما عند الاستعمال يكون الجبن طريا وتضاف إلى العجين والجبن بعض التوابل والخلول، كالاستيون، والفلفل، والقرنفل وماء كزيرة خضراء، وكذلك اللوز والفستق. وفي ما يخص طريقة الطهي فقد قدمها ابن رزين[241]، والتي يستنتج منها ومن بعض الأبيات حول هذا النوع من الحلويات عند كل من المقري[242] وابن الخطيب[243] أن لون المجبنات كان أصفر وأنها كانت مستديرة الشكل ثم إنها كانت تحشى بالجبن، أضف إلى ذلك أنها كانت تؤكل في الصباح. وقد عرفت بعض المدن الأندلسية بهذا النوع من الحلويات كمدينة شريس حتى قيل أن من دخل شريس ولم يذق من مجبناتها فإنه محروم.

والمجبنة بهذا الاسم ما زالت بعض المدن المغربية العريقة مثل تطوان وفاس تحافظ على صناعتها، وهي من الحلويات الشعبية المحترمة، بيد أن شكلها أصبح مربعا وتطلى بالعسل أو يذر عليها السكر، وما زالت تحمل الاسم نفسه حتى في إسبانيا almojatana.

---

[240] – نفسه هامش، رقم 1، ص : 248.

[241] – نفسه ، ص : 82 – 86.

[242] – أورد المقري الأبيات في أزهار الرياض ج : 3 ص : 319.

[243] – لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة م. س ج : 2 ص : 158.

❖ **كعب غزال:** من أنواع الحلويات الرفيعة التي لا تستهلك إلا في المناسبات الخاصة وعند طبقات اجتماعية معينة، وما زال هذا النوع من الحلوى منتشرا في بعض المناطق المغربية خاصة في الرباط وفاس وتطوان، لكن طريقة إعداده حاليا تختلف عن الطريقة التي يتحدث عنها ابن رزين[244].

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن هناك تأثيراً بربرياً أيضا على الطبخ الأندلسي في بعض الأطباق، ونخص بالذكر الكسكس[245] الذي اشتهر به المغرب، والذي يعتبر طعام العامة والخاصة على السواء، وأثار انتباه الاجانب خاصة الرحالة[246] منهم والسفراء. يقول عنه أحد المغاربة: "أنه لو عرف أرسطو البرنس والكسكس وحلق الرؤوس لاعترف لنا (المغاربة) بحكمة التدبير الدنيوي"[247]. هذا وقد وجدنا نوعا آخر من أنواع الطبيخ والذي يعرف بالصنهاجي أورده ابن رزين[248]، والمرجح أنه نسبة إلى قبيلة صنهاجة التي حملت سلالة المرابطين من المغرب إلى حكم الأندلس بل إن الصنهاجيين

---

[244] – قارن ابن رزين وطريقة التحضير عند سميرس.

[245] – يرى إبراهيم حركات أن أصل الكسكس فينيقي. انظر مقاله الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين (الأطعمة والافراح) مجلة كلية الآداب عدد مزدوج 5 و6 1979 ص : 45

[246] – انظر رحلة الأسير موريط م. س، ص: 29 ثم مارمول كربخل الذي قال عنه " هو الطعام المعتاد للصناع وعامة الناس لأنه رخيص الثمن ومغذ جدا" إفريقيا ج 2 ، ص: 177.

[247] – اليوسي الحسن، المحاضرات .. م. س، ص: 198.

[248] – ابن رزين، فضالة الخوان ... م. س، ص : 193 – 196.

وجدوا بالأندلس قبل وصول المرابطين إلى الحكم وتمثل الأمر في بني زيري الذين حكموا غرناطة وقد خصص ابن رزين قسما لهذا النوع من الطبيخ.

لقد نقل الموريسكيون أيضا بعض العادات في طريقة الأكل، فالجلوس على الأرض إلى الطاولة ذات القوائم القصيرة من العادات التي أصبحت متداولة في جميع مناطق المغرب إلى عهد قريب، وهي العادة التي حافظ عليها الموريسكيون رغم ضغوط محاكم التفتيش[249]، أضف إلى ذلك عادة التقاط فتات الخبز من الأرض ،وهي طريقة أخذها كل من الإسبان حيث يقولون **es pan de Dios** إنه خبز الله[250] والمغاربة أيضا حيث لاحظ ذلك جون وندوس، فهم يلتقطون فتات الخبز أينما وجدوه ويقبلونه ثم يحفظونه في مكان معين حتى لا يدنس أو يداس بالأقدام[251].

كما أن تأثيرات طبخ اليهود ،الذين تعرضوا بدورهم للنفي من قبل الإسبان، طالت الطبخ المغربي والعكس بالعكس، فقد كان اليهود يقدمون للزوار الشاي ومعه حلويات كعب غزال[252].

---

(249) – كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ... م،س، ص : 26

(250) – دنون عبد الواحد طه، دراسات أندلسية... م،س ، ص : 244.

(251) – وندوس جون، رحلة إلى مكناس، ترجمة زهراء أخوان تقديم وتعليق عبد اللطيف الشاذلي منشورات جامعة م. إسماعيل مكناس 1993 ص: 95.

(252) – لوطورنو روجي، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي، لبنان 1986، ج 2 ص : 827.

كما أخذ المغاربة عن اليهود طريقة قلي الفلفل وتقطيعه وغمسه في الخل وتحميضات أخرى كالبادنجال والجزر وهي أطعمة يهودية انتقلت إلى الأسر المسلمة[253].

نستنتج إذن أن الطبخ الموريسكي – الأندلسي أفاد كثيراً الطبخ المغربي بمجموعة من الوصفات والتي قدمنا بعض النماذج منها فقط، وهي توحي بكون الإنسان الموريسكي إنساناً متفننا في مجال الطبخ معبرا بذلك عن رقيه الحضاري المتأثر في بعض الأحيان ببعض العادات المكتسبة من المجتمع الإسباني، ثم إن المطبخ الموريسكي يعبر عن الانتماء الطبقي لهؤلاء داخل المجتمع حيث شكلوا دائما النخبة.

3. اللباس

يهدف هذا العنصر إلى التعرف على بعض ألبسة الموريسكيين وما مدى تأثيرها على المغاربة من خلال الاجابة على بعض التساؤلات، فهل احتفظ الموريسكيون بألبستهم الإسلامية أم تأثروا بالالبسة المسيحية النصرانية؟ ما هي نماذج الألبسة التي حملوها معهم إلى المغرب؟.

[253] – محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1985، ص : 42.

ارتبطت الألبسة في الأندلس عموما بتقاليد وأعراف هذا الإنسان، ولازمته في كل أدوار حياته، وكانت تختلف من جهة إلى أخرى باختلاف ظروف البيئة والمناخ، وباختلاف الظروف الاجتماعية للمجتمع الأندلسي، فاتسمت ألبسة الطبقة الراقية بالأبهة والفخامة من حيث الجودة في حين غلب مظهر البساطة على ثياب العامة.

استفادت البيئة الأندلسية من مجموعة عوامل ساعدت على تطور الألبسة، تمثل أحدها في عامل خارجي، وهو الاستفادة من خبرة زرياب الذي وضع مذكرة للزي الأندلسي تقضي بأن يلبس البيض في مطلع يونيو حتى نهاية أكتوبر، وبأن الربيع هو الفصل الذي تلبس فيه ثياب الحرير الخفيف وسترات ذات ألوان زاهية، أما الفراء المبطن ومعاطف الفراء فالشتاء[254]، ثم عامل داخلي تمثل في تطور صناعة المنسوجات خاصة الحريرية منها، حتى إن أعيان قشتالة وأراغون كانوا يجلبون من الأندلس أقمشة ثيابهم[255].

اعتنى الأندلسيون بزراعة شجر التوت لإطعام دودة القز والاستفادة منها في صناعة الحرير، خاصة في منطقة البشرات وبعض نواحي الأندلس، وكانت غرناطة المركز الصناعي والتجاري لكل

---

[254] – ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، م س ، ص : 56–57 المقري، نفح الطيب، م. س ، ج 4 ، ص : 134.

[255] – ابو الفضل محمد أحمد، دراسات في تاريخ وحضارة العرب في الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996 ، ص : 381– 382.

ما يتعلق بالحرير، وكان بها زمن بني نصر سوق مركزي للحرير، يعقد في مبنى اسمه القيصورية[256]، ويحضره رجال من بلدان كثيرة وكانت تباع فيه بالإضافة إلى الحرير الخام والمنسوجات الحريرية، الاقمشة، وظفائر الحرير، والمفتولات الذهبية، والكتان. وكانت بضائع هذا السوق تصل إلى الصحراء وضفاف نهر النيجر حسب وثائق ترجع إلى القرن 15 م، وكان بعض التجار يحملون مواد هذا السوق ويستبدلونها بالعبيد السود يجلبونهم إلى غرناطة، ومعظم سكان غرناطة في بداية القرن السابع عشر كانوا يلبسون حللا من الحرير، وكان اللون الأسمر مخصصا للرجال والألوان الزاهية للنساء[257].

لقد فقد المورسكيون لباسهم الإسلامي حتى كاد أن يضمحل بسبب ضغوطات محاكم التفتيش المسيحية[258]، فاصبح غالبيتهم يتزيون بالزي النصراني[259] إلا في بعض المقاطعات فقد حافظوا على بعض الأشياء الإسلامية كالسراويل والسلاهيم والشاشية والعمامة، فكان الفلاحون يستعملون لباسا من خرق ويتمنطقون بحزام عريض يدعى "الكرزية" التي ما زالت مستعملة عند قدماء التطوانيين وفي

---

[256] – محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون... م. س، ص : 317.

[257] – نفسه.

[258] – كاردياك، المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون... م. س ص : 56 .

[259] – بوزينب الحسين، صعوبة اندماج المورسكيين... م. س ص : 93.

الرباط وسلا حتى عهد قريب، وما زالت تستعمل كشيء، رئيسي عند فلاحي وحدادي أراغون وكطالونيا والأندلس وبلنسية[260].

والشيء نفسه لاحظه الرحالة الأجانب الذين زاروا إسبانيا خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين الخامس والسادس عشر الميلاديين، كالرحالة التشيكي البارون ليون دي روز ميثال الذي زار إسبانيا عام 871 هـ/1466 م ونزل في أحد قصور مدينة بورجس Burgos ضيفا على أحد نبلائها، فلاحظ أن سيدات وآنسات هذا القصر ترتدين ألبستهن وفقا للزي الإسلامي[261]، كما لاحظ الرحالة الألماني جيرو نيمو منزر Jeronimo Munzer الذي زار هو الآخر غرناطة سنة 900 هـ/1494م أن ملابس السيدات المسلمات كانت تتكون من قميص أبيض من الكتان أو الحرير وسروال مسترسل به طيات ويلبس فوقها رداء من قماش أبيض من الكتان، فوشاح من لون أبيض يغطي الرأس والجسم[262]. أما الرحالة الألماني جوهان لانج Johanne Lange الذي زار غرناطة عام 933 هـ/ 1526 م فقد لاحظ أن سيدات وآنسات المدينة كن يرتدين سراويل فضفاضة ويغطين أرجلهن بجوارب سميكة الطيات ويرتدين فوقه رداء لعله

(260) – قشتيليو محمد، محنة المورسكوس... م،س. ص : 56 – 57.

(261) – أبو الفضل محمد أحمد، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس ، م،س ص : 387 – 388.

(262) – نفسه، ص : 388.

الملوطة[263]. ونستنتج مما ذكره الرحالة الإيطالي أندره نا فا جيرو Andrea Navagero الذي زار غرناطة عام 974 هـ/1566م، ولاحظ أن السيدات المسلمات كن يلبسن قمصانا وسراويل من قماش مكبوس، فوقها معطف قصير مطرز هو وأكمامه بالحرير تغطيه عباءة بيضاء طويلة من القماش، كما لاحظ أن السيدات المسلمات من الطبقة الراقية كانت قمصانهن موشاة بزخارف من الذهب، وكانت العباءة أيضا مكسوة بزخارف هندسية بخيوط من الذهب، كما يضعن فوق رؤوسهن قبعات سوداء، أما غطاء الساق والقدمين فكن يلبسن جوارب مجعدة تجعل الركبة ضخمة، وينتعلن أمداس مطرزة بالحرير[264].

لقد اشتهر الموريسكيون خاصتهم وعامتهم بالأناقة وارتداء الملابس الفاخرة والناعمة (الحرير، الثياب المطرزة، الصوف الرفيع...) وقد نقلوا تأثيراتهم هذه إلى المناطق التي هاجروا إليها إلى درجة أن Jean Besancenot اعتبر أن هناك أربعة مدن مغربية فقط : فاس، والرباط، وسلا، وتطوان هي التي يمكن أن تسمى حواضر، أي أن سكانها حضريون في حين أن الباقي بربريون، ويضيف قائلا أن سبب ذلك راجع إلى كون سكان هذه المناطق – الحواضر –

---

(263) – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(264) – المرجع نفسه،

أغلبهم أتى من الأندلس، إما في فترة مبكرة أو بعد سقوط غرناطة[265].

تنوعت إذن الملبوسات الموريسكية حسب فصول السنة، فقد كان الملف لباس الشتاء، وهو أيضا اللباس نفسه الذي كان سائدا عند الغرناطيين أيام بني نصر[266]، ثم المنسوجات الحرير والكتانية صيفا، وقد نقلوا تاثيراتهم بل نقلوا معهم حتى تربية دودة القز إلى المدن التي استقروا بها، مثل فاس وتطوان وشفشاون[267] وقبائل جبال غمارة وبني عروس[268]، لكن المكان الذي تطورت فيه تربية دودة القز هو تطوان التي استقر بها عدد كبير من الموريسكيين يقول الرهوني "وقد كان الناس في القرون الماضية إلى العشر الأولى من هذا القرن معتنين غاية الاعتناء باستخراج الحرير من الدود، فكان جل الناس يغرس في جناته أو غرسته عدداً من أشجار التوت، حتى إذا انتصفت الليالي اشترى أهله أوقية أو أكثر

---

(265) - Besancenot. J , Le costume du Maroc, édition ALkalam, Rabat , p.137

(266) – ابن الخطيب، اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية، ط 2 ،منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978، ص : 38 – 39.

وانظر الإحاطة... م.س ، ج 1 ، ص : 134 – 135 .

(267) – العافية عبد القادر، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، مطبعة فضالة، الجديدة، 1982، ص: 221.

(268) – السعود عبد العزيز، تطوان خلال القرن 19 ، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي، منشورات جمعية تطاون اسمير، 1996، ص : 25.

من زريعة الدود وربوها على القاعدة المقررة حتى تفرخ ثم يروبونها على أوراق التوت حتى تنتشر في البيوت... ثم تصير تغزل خيوط الحرير على لوزتها إلى أن تفصد عليها فتجمع في الأطباق ويذهب إلى التي عندها آلات استخراج الحرير منها، وكل دار تجمع من ذلك في كل يوم الرطل إلى عشرة أرطال أو أكثر من الحرير وتبيعه أو تبيضه وتصبغه وتجعله مدجات (قناشل) أي طاقات صغارا يحصل الناس من ذلك أرباحاً طائلة منها وتكتسي العائلة... هكذا كان الحال عند غالب أهل هذه البلدة وقد صار إلى الآن من أحاديث خرافة"[269].

لقد احتفظت لنا كتب الرحالات التي زار أصحابها المغرب، بأوصاف بعض أنواع الملابس التي يرتديها الموريسكيون التي لا تختلف عما كان سائداً في إسبانيا، ومن أهم هاته الرحلات نجد كتاب وصف افريقيا للرحالة الهولندي دابير الذي قدم وصفا دقيقا لملابس وأحذية الوفد الدبلوماسي الموريسكي الذي كان قد أوفده الأمير عبد الله الدلائي إلى هولندا سنة 1070هـ/1659 م، واستطعنا من خلاله الحصول على العديد من المعلومات الدقيقة حول أنواع الملابس الموريسكية وألوانها وكيفية لباسها في تلك الفترة، ومما يعطي الأهمية لهذا الوصف هو احتفاظه على بعض أسماء أنواع

---

(269) – الرهوني، عمدة الراوين... م. س، ج 1، ص : 246.

الألبسة الموريسكية، كالحايك والفراجية والكرزية والشان، والقلنسوة ثم الغفارة وأخيرا البرنوز[270].

هذا عن ألبسة الرجال أما ألبسة النساء فقد أورد كل من الوزان[271] ومارمول كريخال[272]، وصفا دقيقا عنها وخاصة لباس الفاسيات، فقد كان لباسهن يتكون في فصل الحر من قميص طويل عريض، تضع النساء عليه حزاما لا يخلو من قبح وأخفاف أو أحذية واطئة جدا بينما الساق عاريا، ويلبسن في فصل البرد ثيابا عريضة الأكمام مخيطة من الأمام كثياب الرجال، ويخفين الوجه كذلك بخمار، بحيث لا تظهر إلا العيون ويتحلين بأقراط في آذانهن، وأساور في معاصمهن، وخلاخل في أرجلهن، وكلها من ذهب بالنسبة للميسورات، ومن فضة بالنسبة للطبقات الشعبية.

ويظهر كذلك أن تكاثر الأندلسيات وتأثيرهن في المجتمع المغربي عامة والفاسي خاصة جعل اللباس أكثر أناقة وأقل حشمة، حيث كن إذا خرجن لبسن سراويل طويلة متموجة جدا تبدو معها الساق جد جميلة لأن لباسهن لا يصل إلا إلى منتصف الساق[273]، وقد بلغ التأثير الموريسكي في لباس المرأة الفاسية إلى درجة جعلت

---

[270] – السمار محمد، مدينة الرباط... م. س ص : 309 – 310.

[271] – الوزان، وصف إفريقيا... م. س، ج 1 ، ص : 197.

[272] – مارمول، إفريقيا ... ج 2 ، ص : 176 – 177

[273] – المرجع نفسه، ج 2 ، ص : 176.

"مارمول" يقول: "إن زي الفاسيات يكاد يكون زي موريسكيات غرناطة"[274].

لكن رد الفعل الديني في أواخر القرن السادس عشر والسابع عشر أتى على ذلك وأرغم النساء على حشمة أكثر[275].

ويعتبر فن الطرز كذلك من أهم المخلفات التراثية التي تعكس جانبا مهما من خصوصيات الثقافة الحضرية الأندلسية في اللباس، إذ تؤكد العديد من المعطيات على الأصل الموريسكي لهذا الفن، وذلك نتيجة توافد العديد منهم والاستقرار بمناطق مختلفة من المغرب[276]، فقد توصلت الباحثة كريستين برينو[277] في دراستها عن الطرز الرباطي إلى التأكيد على أصله الموريسكي، كما أشارت إلى العديد من التصورات والتأثيرات الداخلية والخارجية التي ساهمت في إغنائه بأنماط جديدة من الزخرفة والتزيين، وأكد من جهته J.L Miege نفس الفكرة فقد لاحظ أن الطرز في تطوان خلال القرن 11هـ/ 17 م هو نفسه الذي كان سائدا في العصر

---

(274) – نفسه، ص : 177.

(275) – لوطورنو، فاس قبل الحماية... م. س، ج، 2، ص : 718.

(276) – عن الطرز ببعض المناطق التي استقر فيها الموريسكيون انظر مثلا :

- Guerard Martha, Les broderies de Fès, H . T vol ; VIII , 1967 p : 5-22
- """""" Les broderies de Tetouan H . T vol, X ,1969 p : 191 -216
- """""" Les broderies de Chechouen H . T vol, XV , 1974 p : 225 - 250
- """""" Les broderies de salé H. T F.a. s. c uniques, 1978 -1979 p: 211 - 232

(277) – السمار محمد، مدينة الرباط... م. س، 302.

النصري والذي يرجع أصله إلى التطريز الموجود في استرامادور وقشتالة[278]، كما أن دوائر الطرز كلها نماذج إسبانية تعود إلى القرن 16 نجدها في الرباط أيضا، بل بقيت إلى القرن العشرين[279].

ولأهمية الموضوع نورد أسماء بعض الملابس ذات الأصل الموريسكي:

- **الحائك** : يرتديه الرجال والنساء كذلك، وظلت المرأة تستعمله وخاصة التطوانية في الخروج وقد اختفى اليوم بعد أن اكتسحته الجلابة في الأربعينيات وكانت تسمى في غرناطة الملحفة[280] وفي سوس مازالت النساء يستعملن كلمة تملحفت كرداء يغطي الرأس والصدر والحائك التطواني صورة طبق الأصل للملحفة الموريسكية التي خلدها الرسام الألماني Weidity في إحدى لوحاته عن موريسكيات غرناطة في القرن 15 [281]، وقد توصل أحد الدارسين[282] إلى أن الحائك لم يكن متداولا في العصر الموحدي

---

[278] -Miege.L, M' Hamed Benaboud, Nadia Erzini, Tetouan, Ville Andalouse Marocaine, Kalila Wadimna, Rabat 1996,p : 40 .

[279] -Ibid p :42

[280] – اللوه أمينة، صور من تطوان الغرناطية، مقال بمجلة الأكاديمية، عدد 15، 1982 (خاص بالموريسكيين بالمغرب)، ص : 226.

[281] – نفسه

[282] – مقر محمد، اللباس المغربي خلال عهدي المرابطين والموحدين، أطروحة د. د. ع. الرباط،ص : 63.

والمرابطي، وإنما أول من ذكره هو مارمول باسم الحيك مما يعني أنه دخل مع الموريسكيين.

- البنيقة: ثوب قطني يكون عادة أبيض ومطرزا بالحرير تلف به النساء شعورهن[283] بعد الخروج من الحمام . ويتحدث دييغودي هايدو Diego de Haedo في كتابه طبوغرافية الجزائر Topografia de argel الذي نشر سنة 1021 هـ/ 1612 م في بلد الوليد بإسبانيا عن نساء الجزائر بأنهن جميعا سواء العربيات أو التركيات أو المرتدات يستعملن في رؤوسهن شيئا كالكوفية يجمعن فيها شعورهن ويسميها باللغة الموريسكية Larita أو البنيقة[284].

- السبنية: نسبة إلى Saban قرب بغداد التي كانت تصنع بها وبهذا الاسم كانت تعرف بغرناطة وبالاسم نفسه تعرف في تطوان وفاس إلى اليوم، وربما يكون الاسم نسبة إلى إسبانيا على غرار الصينية بالنسب للصين، وعلى أي فهي تعني المنديل الذي تضعه المرأة فوق رأسها[285].

---

[283] – دوزي ، تكملة المعاجم ... م. س ج 1 ، ص : 454.

[284] – اللوه أمينة، صور من تطوان ... م. س ، ص : 227.

[285] – حركات إبراهيم ، معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب على عهد بني مرين مجلة كلية الآداب الرباط، ع: 2. 1977 ص : 233 -234.

- **الشـربيل:** مـن اللغـة الرومانسـية Sevilia [286] وكـان مستعملا في الأندلس في القرن الرابع عشر بالاسم نفسه وهو حذاء مطرز بالذهب والحرير وثوبه من القطيفة.

- **الريحية:** حذاء من الجلد ذي اللون الأحمر ويقال إن اسمه أخذ من الراحة لأنه يريح القدم، وكانت النساء تستعمله في الخروج مع الحايك، ويوجد بالاسم نفسه في الوثائق الغرناطية، وقد ساد معظم مناطق المغرب منذ القرن 10هـ 16م ولا سيما في شمال البلاد كما في تطوان وشفشاون وضواحيها ومنذ ذلك الوقت أصبح لباسه من عادات المغربيات في عدة جهات[287] بل لا يزال في بعض مناطق الأطلس المتوسط البربرية ويعرف بتريحيت.

❖ لباس الرجال:

- **السلهام:** عوضت هذه التسمية كلمة (برنس) التي لم تعد مستعملة في المغرب واستعملت بدلها كلمة (سلهام) المأخوذة من الكلمة zulame القشتالية والتسميتان معا (سلهام وzolame) كانتا مستعملتين في الأندلس سواء لدى المسلمين أم المسيحيين منذ العصور الوسطى، ولم تعد هذه الكلمة مستعملة بإسبانيا في حين

---

(286) – اللوه أمينة، صورمن تطوان... م. س ص : 227.

(287) – العافية عبد القادر، الحياة الاجتماعية... م. س 231.

احتفظ بها في المغرب، على عكس أقطار العالم العربي التي ما تزال تحتفظ بكلمة برنس[288].

- **البلغة**: الكلمة من أصل لاتيني، وقد عرفت تطورات عديدة، فالأصل اللاتيني الأول Quercus [289]، ويفرق محمد مقر بين البلغة وكركس[290]، في حين أن برينو[291] ودوزي لم يعثرا على أصلها في معجمهما... وقد عرفت تطورا مهما وتفنن الحرفيون في صنعها[292].

- **البدعية**: وهي مما نقله المهاجرون الأندلسيون إلى المغرب، وهي عبارة عن صدرية من الجوخ أو النسيج[293]، والبدعية نسبة للبدعة وكأنها لم تكن معروفة عنده المغاربة قديما، أي ربما الموريسكيون هم الذين أدخلوها، ثم هناك فرق أيضا بين البدعية والصدرية؛ فالأولى مفتوحة للصدر، والثانية مفتوحة للجنب[294] ويرى محمد رزوق أن البدعية لم تكن مستعملة كثيرا، بل استعمل بدلها لفظ الصدرية بدليل أنه أثناء محاكمة موريسكي أمام

---

(288) -Dozy R. Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les arabes p: 7 .

(289) - Ibid p:363 .

(290) – مقر محمد – اللباس المغربي... م. س، ص: 84 – 85.

(291) - Brunot.L, Noms des vêtements masculin à Rabat , Mélanges René Basset .

(292) - Brunot. L , Noms Des Vêtements... Op, Cit, p 91-90

(293) - Colin.G ,Dictionnaire Colin d Arabe...op, cit T . 1, p : 56

(294) – الرهوني أحمد، عمدة الراوين... م. س، ج 2، ص: 182.

محاكم التفتيش قضت المحكمة بمصادرة أمتعته فتقدمت الزوجة بشكاية من أجل استرجاع أمتعتها ومن جملة الأمتعة نجد صدرية من حرير[295].

- **المضمة**: هي حزام لشد اللباس إلى الجسم، وهي مما نقله الأندلسيون إلى المغرب ويرى دوزي أنها من أصل عربي من فعل ضم[296]، وقد انتشر استعمالها في العصر السعدي بين العلماء[297] وعلية القوم خاصة وبين النساء كذلك مع تغيير في زخرفتها لأنه كان لها صناع متخصصون[298] وهي على عكس الحزام... الذي كان يصنع من الجلد البسيط وهو لباس متقشف تلبسه العامة والفئات الفقيرة[299] والملاحظ أن هذا النوع من اللباس أصبح حكرا في وقتنا الحاضر على النساء فقط.

- **الكرزية**: يرى دوزي أن الكلمة غير عربية، وأنها مشتقة من البربرية تكرزت[300] خاصة أنها كلمة لم تكن معروفة سوى في

---

(295) – رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم... م،س، ص : 295.

(296) – يورد ابن عسكر، "أن الونشريسي إذا دخل العرصة جرد ثيابه وبقي بقشابة صوف يحزم عليها بمضمة جلد دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن 10، تحقيق محمد حجي، ط 2، دار المغرب للتاليف والنشر، الرباط، 1977، ص : 47.

(297) -Dozy. R , Dictionnaire... OP, Cit , p: 50-49

(298) – ستيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرن 16 و17 أطروحة دكتوراه في التاريخ كلية الآداب وجدة ص : 406.

(299) – استيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرن 16 و17 أطروحة دكتوراه في التاريخ كلية الآداب، وجدة، ص : 406.

(300) -Dozy, Dictionnaire... op, cit p : 282.

المغرب والأندلس، وإذا كان الوزان ومن سبقه من الجغرافيين كالادريسي يرى على أن الكرازي في المغرب كانت عبارة عن حزام طويل من صوف يلف على الرأس، فإن العديد من المؤرخين يقول إن استعمالها كان أيضا عند الموريسكيين، بل يؤكد قشتيليو أنها لازالت تستعمل عن فلاحي وحدادي أراغون بإسبانيا[301].

- الشاشية[302]: من الألبسة التي أخذها معهم المهاجرون الأندلسيون إلى شمال افريقيا كتونس والمغرب، ويرى عبد الله السويسي، عبد العزيز بن عبد الله أن الشاشية الحمراء أضيفت إليها الشوشة الزرقاء وهذه الأخيرة (الشوشة) فرضت على الأندلسيين زمن المحنة حيث أجبر الإسبان العرب المتنصرين على تمييزهم بشارة زرقاء يجعلونها على قلانسهم وقد أضيفت إلى القلنسوة والشوشة الأندلسيتين العمامة المغربية[303]. وبقي التأكيد على استعمال المغاربة الزي الأبيض في الأعياد والأفراح بل حتى في الحداد أي أيام الحزن اقتداء بالعادة الأندلسية[304].

وأخيرا نشير إلى تأثير المرأة الأندلسية أيضا في مجال الزينة، فقد كن كثيرات الاهتمام بأناقتهن وزينتهن فكن يخضبن بالحناء

---

(301) – قشتيليو، محنة الموريسكوس، م. س، ص : 56 – 57.

(302) –Dozy, Dictionnaire ... op, cit, p : 243 – 244.

(303) – بن عبد الله عبد العزيز، معطيات الحضارة المغربية، دار الكتاب العربية الرباط، 1963، ج 1، ص : 43.

(304) – بناني عبد الحق، التاثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المغرب وغرناطة خلال القرن 13 و15م ضمن ندوة جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية، مكناس، 1991، ص : 126.

أرجلهن وأيديهن أو الأظفار منها فقط، أو يذهن رؤوسهن معتقدات أنها تصلح الشعر وتجعله أسود لامعا براقا[305]، كما كن يكحلن ويوردن خدودهن بالحمرة مع مسحوق ونقط سوداء، كما يضعن على وجههن خالا اسود ويدهن جفنيهما بدهن مابين البياض والزرقة (كبياض الفضة تقريبا) وهذا الدهن لا زال مستعملا إلى الآن بإسبانيا[306].

وتأتي أهمية الحلي عند المرأة الموريسكية من رغبتها في التزين أكثر لاكتساب إعجاب الآخرين وقد احتفظت بالحلي التي كانت سائدة في الأندلس كالقلائد والدمالج والخلاخل[307] وقد تأثرت صياغة الحلي التي احترفها اليهود[308] بمؤثرات أندلسية وإسبانية منها ما يرجع إلى أواخر الفترة الموحدية وبداية الدولة النصرية[309] ومنها ما يرجع إلى الفترة الموريسكية وهي الفترة التي توافق بداية النهضة الإسبانية فقد انتقلت إليها بعض تقنيات وآليات الصياغة فمجوهرات شمال افريقيا عامة مزينة برسوم هندسية أو حيوانية أوإنسانية وهي رسوم يحرمها الدين الإسلامي فمثلا بتطوان وجدت

---

(305) – مارمول، إفريقيا، م.س ، ج 2، ص : 177.

(306) – قشتيلو، محنة الموريسكوس، ... م.س. ص : 56.

(307) – ابن الخطيب، اللمحة البدرية... م.س ص : 40، ثم انظر أيضا الإحاطة... م. س ، ج 1 ، ص : 139.

(308) – الوزان، وصف إفريقيا... م.س ج 1، ص : 219.

(309) -Terrasse. H, Notes sur L'origine des bijoux du Sud Marocain Hes, 1930, T. 11, p :128.

منجدا (وهو جوهر معلقة بسلسلة تلبس في العنق) على شكل طائر وكانت تشكل إلى عهد قريب شيئاً ضرورياً في حلي الزواج التقليدية[310]. وقد تنوعت أنواع الحلي فمنها ما كان خاصاً بالأذنين كالأقراط والتي تسمى أيضا بالأخراص[311]، ومنها ما يستعمل في الايدي كالخواتم والأساور وقد تستعمل عدة اساور في كل ساعد وأحيانا تكتفي المرأة بأسورة واحدة وفي هذه الحالة يصل وزن سوار واحد إلى مثقال وهو ما يعادل 500 غرام[312]، أما حلي الصدر فكانت الخميسة الذهبية أو القضية[313]، حسب كل فئة، وهي عبارة عن صورة للكف التي هي من بين المعتقدات المسيحية التي رسخت في أذهان الموريسكيين لأن الكف هي كف فاطمة وهي مانعة للأرواح الشريرة وتطرد كل شيطان رجيم[314].

من خلال ما سبق يتضح جليا أن التأثير الموريسكي في الزي واللباس المغربي بلغ أشده، بل لا زالت بعض أنواع الألبسة وتسميتها معروفة بإسبانيا نورد بعضها من خلال الجدول:

---

(310) -Miege et autre, Tetoun ... op, cit p : 40

(311) -Rousseau. G, Le Costume du Maroc, Ed, De Boccard, Paris 1938, planches 10 et 11.

312 – الوزان، وصف إفريقيا... م،س ج 1 ص : 252.

(313) - Rousseau . G, Le Costume au Maroc, op, cit, planches 10 et 11.

314 – يرى محمد رزوق، أن هذا الكف من التأثيرات المسيحية التي حملها الموريسكيون إلى المغرب وهذا غير صحيح لأننا نجد أن العدد الخماسي مرتبط بالدين الإسلامي كما أن الإسبانيين كانوا يعاقبون الموريسكيين الذين يرتدون الكف وكانت تسمى ب ، الأندلسيون وهجراتهم.. م. س ص : 293.

اللفظ الزيي	اللفظ الإسباني
قفطان	Kafetan
برنس	Albornoz
السراويل	Zaro wells
خلاخل	Halajas
حلي	Alhilies
حناء	Alhèna
الكوفية	Alcerfia
الملفة	Almalfa

الفصل الثاني : التقاليد والعادات

1. الاحتفالات

كانت هناك العديد من المناسبات التي يحتفل بها أو يحتفى باصحابها، أو يتسلى فيها وتستغل للترويح على النفس وتكسير نمط الحياة العادية اليومية، وما يطبعها من رتابة وملل، وتختلف كثير من هذه المناسبات باختلاف أنماط العيش، فبعضها خاص كالاحتفالات العائلية و بعضها يحتفل به عامة الناس كالأعياد الدينية. وقد حرص المورسكيون على إحياء هذه المناسبات وفق تقاليد وعادات معينة لها صلتها بحضارتهم والظروف التي عاشوها.

أ. الاحتفالات العائلية

❖ الأعراس:

ظل العنصر المورسكي متشبثا بأعرافه وعادته الإسلامية وتؤكد العديد من وثائق محاكم التفتيش على كون المورسكيين حافظوا على تخليد عادة الزواج على الطريقة الإسلامية[315]، فبعد عقد الزواج في الكنيسة على الطريقة المسيحية فإنهم كانوا أثناء وجودهم في بيوتهم يعيدون الاحتفال على الطريقة الإسلامية وتُبين الكتابات التي اطلعنا عليها أنهم حافظوا على الاحتفال بحفلة

---

[315] – ثيافا خوليو فرناند، مسرحية هورناتشوس... م،س ص : 101 – 105.

الزفاف وفق منظومتهم الحضارية أي أنها لا تعطي تدقيقات واضحة من شأنها أن تمكننا من معرفة هل بالفعل حافظوا على التقاليد الإسلامية؟ أم أنها طالها تغيير أو تأثر بالتقاليد النصرانية.

من المعلوم أن العديد من الكتابات خاصة الأجنبية منها أكدت أن الموريسكيين انعزلوا في الأماكن التي هاجروا إليها فكانوا لا يتزوجون إلا فيما بينهم رافضين التزاوج مع غيرهم، وقد لاحظ ديكودي طورسي هذا الأمر عند موريسكيي فاس يقول "الآن المغاربة القاطنون في الزقاق (زقاق الأندلسيين) الذين نحن بصدده أنهم ينتمون إلى هؤلاء الإسبان لأنهم لم يقبلوا قط التزوج من أهل البلاد"[316]، ويمكن تفسير هذا العزوف بما يلي:

- التباعد في السلوك الاجتماعي بين الموريسكيين والمغاربة من حيث اختلاف العادات، فالمغاربة كانوا محافظين في حين كان الموريسكيون نظرا لاحتكاكهم بالنصارى يتميزون بنوع من التحرر.

- صعوبة القيام بأمر الزواج وخاصة العجز عن توفير المهر الذي عرف على أن الأندلسيين منذ القدم، كانوا يدفعون مهورا ذات مقادير باهضة عكس المغاربة[317]، وعلاوة على هذه المقدمات كان

---

(316) -.طوريس ديكودي، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر مطابع سلا 1988، ص : 144 انظر كذلك: Chaustel.R , Rabat salé... op, cit p : 93

(317) - بوتشيش إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع الذهنيات والأولياء، ط 1، دار الطليعة ، بيروت 1993.

حفل الزفاف والإعداد له يتطلبان أعباء وتكاليف لم يكن بوسع العريس ولا أهل العروس التغلب عليها دائما[318] ويتأكد هذا الأمر إذا علمنا أن الموريسكيين كانوا يعتبرون أنفسهم طبقة أرستقراطية، وهذا ما يمكن أن نفسر به السبب الذي جعلهم يرفضون الزواج مع غيرهم وقد كان لهذه الظاهرة تاثيرها على الفقراء خاصة[319] مما دفع بالعديد من الفقهاء إلى التصدي لمثل هذه الأمور لما لها من آثار سلبية ، خاصة العزوف عن الزواج وانتشار ظاهرة الزنا[320].

وكانت حفلات الزواج تخضع لبعض الطقوس والعادات كالاحتفال بهذه المناسبة بشتى أنواع الموسيقى وخاصة الأندلسية منها، ثم بعد ذلك تتزين العروسة بمختلف أنواع الزينة[321]، ثم تؤخذ في محملها (العمارية) على شكل عرش صغير مغطى بثوب من حرير يُحمل على الأكتاف تحت أصوات الطبول والمزامير عبر أزقة المدينة[322] . ويستشف من هذه العادة أنها مسيحية ولازالت منتشرة في إسبانيا خاصة. وتعرف بإشبيلية ب: La Semana santa والمرجح أن الموريسكيين أدخلوها إلى المغرب حيث لازالت منتشرة في

---

[318] – الوزان، وصف إفريقيا ج 1 ، م.س، ص : 201.

[319] – استيتو محمد، الفقر والفقراء... م،س، ص : 466.

[320] – أفيلال محمد بن التهامي، تنبيه الأكياس للاقتصاد في المآتم والأعراس، تطوان 1976، ص: 38.

[321] – عن تزيين العروس انظر، وندرس– بون، رحلة إلى مكناس، وترجمة زهراء أخوان تقديم وتعليق عبد اللطيف الشاذلي، منشورات كعمادة كلية الآداب مكناس، 1993، ص : 45– 46.

[322] – مويط، رحلة ... م. س ، ص : 62.

بعض المناطق المغربية. وتعتبر ليلة الزفاف امتحانا للعروس البكر لأنها ليلة اختبار لبراءتها وعفتها أو مناسبة لإدانتها، إذا ما ثبت عكس ذلك، وتعتبر هذه العادة من العادات الأندلسية ويورد لنا ابن الخطيب نصا يدل على أن من العادات أن يخرج العريس قميصا عليه أثر دم افتضاض غشاء البكرة دليلا على الفحولة من جهة والشرف من جهة ثانية[323].

وقد انتقلت هذه الظاهرة إلى المغرب وأكد ذلك جون وندوس أثناء وصفه لمدينة تطوان وعادتها يقول: "... فإذا ظهرت العلامات الخاصة بعث السروال إلى كل الاقرباء بابتهاج كما هو الشأن في بعض مناطق إسبانيا إلى الآن، لكن إذا ثبت عدم عذرية العروس فإن العريس ينزع عنها زينتها ويلقي بها إلى الخارج"[324].

وبعد هذا يقيم العريس حفلة خاصة تسمى بحفلة السلام يحضرها ذوو المحرم للسلام على العروسة ومشاهدة طلعتها وتقديم الهدايا وكان لا يرى العروسة فيما بعد إلا من أتيح له حضور هذه الحفلة البارزة التي كانت تتسم برونق خاص ولازال البعض يحافظ على هذه العادة رغم سفور المرأة[325].

---

(323) – ابن الخطيب، الإحاطة، م. س، ج: 3، ص: 502.

(324) – وندوس جون، رحلة إلى مكناس، م.س، ص: 46.

(325) – السويسي عبد الله، تاريخ رباط الفتح... م.س ص: 158.

❖ العقيقة والختان :

حرص الموريسكيون على الحفاظ على هذه العادات متحدين محاكم التفتيش وقراراتها ، فكانت النساء تقمن بغسل أبنائهن بالماء الساخن للقضاء على الزيت المقدس، وبالتالي إزالة آثار عملية التنصير التي تعرض لها أطفالهن الصغار من قبل الكنيسة ، وأثناء القيام بهذا الاحتفال تقع عملية الختان ويعطونهم أسماء عربية ، وكانت هذه العملية تسمى بعملية الفضض(326) ، وقد أكد توليو هالبرين أن كل الموريسكيين الذين وقعوا في أيدي محاكم التفتيش في بلنسية – وهي التي كانت تضم أكبر نسبة من الموريسكيين- كانوا مختونين، وقد أشار أيضا إلى وجوه عائلة بربرية في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي(327).

حافظ الموريسكيون المهاجررون إلى المغرب على هذه العادات والاحتفال بها بمختلف أنواع الموسيقى وتهيىء أشهى الأطعمة والحلويات الأندلسية(328) ولازال العمل جاريا بهذه العادات في المغرب وإن كانت عملية الختان تراجع فيها دور الحجامين لصالح أطباء وجراحي العيادات بطرقهم الحديثة.

---

(326) – برامن دولورس، اعتبار شعيرة الفضض كمحافظة على العقيقة... م،س ص : 19– 24

(327) – دومينقيز انطونيو، تاريخ مسلمي الأندلس... م. س ، ص : 169.

(328) – السويسي عبد الله، تاريخ رباط الفتح... م. س ، ص : 158 – 159 .

ب. الأعياد والمناسبات الدينية

يعتبر يوم الجمعة المعروف "بعيد المؤمنين" إلى اليوم عيدا أسبوعيا ويستغل هذا اليوم عادة في زيارة القبور والترحم على الأموات أو لزيارة الأحباب لاسيما من قبل النساء إلا أن أهم المناسبات الدينية هي الأعياد السنوية مثل عيد الفطر وعيد الأضحى (العيد الصغير والعيد الكبير) وعيد المولد النبوي وعاشوراء فكيف كانت تخلد هذه الأعياد؟

- **عيد الفطر (العيد الصغير):**

يعتبر عيد الفطر[329] الذي يحل مباشرة بعد شهر رمضان ثاني أهم الأعياد بعد العيد الكبير ويعتبر حلوله مناسبة للفقراء للطواف على الدور لتلقي زكاة الفطر الواجب على كل رب أسرة يملك قوت يومه أن يدفعها قبل صلاة العيد عن كل فرد من أفراد عائلته.

وتبرز مظاهر الاحتفال بعيد الفطر لدى المورسكيين بإعداد النساء الحلويات والأطعمة بهذه المناسبة ثم بارتداء الملابس الجديدة، أو النظيفة منها وتبادل الزيارات بين الأهل والأحباب والجيران وفي هذه المناسبة كذلك تزار القبور للترحم على الأموات.

---

[329] – الملاحظ أننا لم نجد تدقيقات واضحة عن طريقة احتفال المورسكيين بهذا العيد ثم بعيد الاضحى.

- **عيد الاضحى (العيد الكبير):**

تكاد مظاهر الاحتفال بهذا العيد لا تختلف عن العيد السابق إلا من حيث ما يتطلب هذا الأخير من تكاليف إضافية مهمة لشراء الأضحية وما يتبعها من لوازم وجرت العادة أن يذبح الناس أضاحيهم بعد ذبح إمام المسجد أضحيته.

وعلى غرار عيد الفطر، اعتاد الناس على تبادل الزيارات فيما بينهم ولباس الثياب الجديدة واتخاذ كل أشكال الزينة ثم الخروج إلى الشوارع للفرجة وكانت النساء الأندلسيات يخرجن إلى المتنزهات[330]، كما كانت الأضحية مناسبة لإعداد أشهى أنواع الطبيخ (كالمروزية) التي سبقت الإشارة إليها في العنصر المتعلق بالطبخ وقد ابتكرت المرأة الأندلسية عدة طرق للحفاظ على اللحم من التلف والضياع فكانت تخلع جزءا منه وتجفف جزءا آخر فيما يعرف بالقديد.

- **عيد المولد النبوي**

لم يكن المولد النبوي من المناسبات الدينية العريقة والتقليدية بالمغرب إذ كان الاحتفال به يقتصر في البداية على سبتة زمن العزفيين الذين جعلوا منه عيدا لأول مرة في تاريخ الغرب الإسلامي، وقد كان الحافز على الدعوة لهذا الاحتفال محاولة لمحاربة أعياد

---

[330] – بوتشيش، المغرب والأندلس... م،س ، ص : 91.

الديانات السابقة والطقوس القديمة لما لها من بدع التي دأب المسلمون بالأندلس والمغرب وغيرها على الاحتفال بها دون معرفة جذورها وخلفيتها[331] وسيتم تعميم الاحتفال بهذا العيد بالمغرب على عهد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب سنة (691 هـ/1292م) [332]، ثم تحول في العصر السعدي إلى حدث ديني كبير يحظى بعناية فائقة للغاية على المستوى الرسمي و الشعبي لاسيما على يد أحمد المنصور[333]، الذي كان يحرص على أن يمر في غاية من الأبهة بتنويع مظاهر الاحتفال وبذل الأموال فيه، وقد كان العنصر الأندلسي يحضر بكثرة إلى هذه المناسبة لما عرف على المنصور من بذل الأموال والهدايا لكل من يفد عليه، وقد حكى القاضي عبد الواحد الحميدي مرة أنه وفد عليه في جماعة من الفقهاء بحضرة مراكش" فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقى وأصحاب الأغاني من أهل فاس، وقد كانوا وفدوا أيضا على المنصور على سبيل العادة، فأخرج بعضهم شبابة من الإبريز مرصعة أعطاه إياها المنصور وبعضهم قال أعطاني كذا وقال الآخر أجازني بكذا، مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء فقال القاضي : لئن بلغت فاسا لأَرُدَّن أولادي إلى صنعة الموسيقى فإن صنعة

---

[331] – المنوني محمد، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب الرباط،1979 ، ص : 265 – 266.

[332] – نفسه، ص : 268 .

[333] – الافراني، نزهة الحادي... م،س ، ص : 145 – 157.

العلم كاسدة، ولولا أن الموسيقى هي العلم العزيز ما رجعنا مخفقين ورجع المغني بشبابة الإبريز"[334].

- **عاشوراء**

تصادف هذه المناسبة كما هو معلوم اليوم العاشر من شهر محرم، الذي يفضله عادة معظم الموسرين في المغرب لأداء فريضة الزكاة ،ويذكر أن الرسول ﷺ هو الذي سن إحياءها[335] بصوم اليوم العاشر والذي قبله أو الذي بعده مخالفة ليهود المدينة.

وإذا كان الشيعة قد جعلوا من هذا اليوم يوم حزن لمقتل الحسين بن علي وأسرته فإن المغاربة والأندلسيين على العكس من ذلك جعلوه يوم فرح وحفلات فكان هذا اليوم يحظى فيه الأطفال بعناية خاصة فتشتري لهم الملابس الجديدة وتقدم إليهم الحلوى وتقتنى لهم الألعاب كالفرافر[336] وهذا يعني أن طريقة احتفال المغاربة بعاشوراء تبقى تاثيراتها أندلسية لما يكتسيها من طابع البهجة والسرور عكس الطابع الحزين لدى الشيعة.

---

[334] – الناصري، الاستقصا ...م. س ، ج : 5 ص : 189 – 190.

[335] – حركات إبراهيم ، السياسة والمجتمع... م. س، ص : 260.

[336] – استيتو محمد، الفقر والفقراء... م. س ، ص : 454

ج. أعياد غير إسلامية

إلى جانب الاحتفال بالأعياد الإسلامية، شارك الأندلسيون إخوانهم المسيحيين في أعياد خاصة منها:

- **عيد ميلاد المسيح**

ذكر الوزان أن الفاسيين كانوا في عصره يحتفلون ببعض الأعياد التي أرجع اصولها لبقايا أعياد مسيحية، ينطق فيها بكلام لا يعرفون له معنى، ففي يوم القديس يوحنا توقد نيران كثيرة[337] من التبن في جميع أحياء المدنية[338] وإن كان الوزان قد أرجع أصول هذه الأعياد إلى بقايا قديمة نصرانية فإنه من الممكن أن تكون قد دخلت مع المورسكيين إلى المغرب فقد أكد كارديياك أن سبب احتفال المورسكيين ببعض أعياد المسيحيين هو تعبيرهم عن احترامهم للمسيح وتذكير للشهادة المشهورة التي أعلنها عند ما قال .... إن الذي سيأتي بعدي كان خلق قبلي"[339].

- **يناير (الحاكوز):**

عيد مسيحي شارك فيه الأندلسيون إخوانهم المسيحيين حيث كان هذا العيد يقام كل سنة، ومن مظاهر الاحتفال به لدى

---

[337] – وهو ما يعرف في بعض المناطق المغربية بشعالة بل هذه الظاهرة معروفة في بعض دول أوربا جنوب البحر الأبيض المتوسط مما يوحي على التأثير المسيحي.

[338] – الوزان، وصف إفريقيا ، ج 1، ص : 201.

[339] – كارديياك، المورسكيون الأندلسيون... م. س ، ص : 42.

الأندلسيين بالتماثيل المعروفة بالنصبات وهي عبارة عن موائد كبيرة يضع عليها الباعة أشكالا هائلة من الحلوى والفواكه[340]، ولا يزال هذا العيد معمولا به في المغرب في الثالث عشر والرابع عشر من كل شهر يناير تؤكل في اليوم الأول الفواكه وتقدم الهدايا ويعرف بمدينة وجدة بالناير.

- النيروز (العنصرة):

حرص الأندلسيون على الاحتفال بعيد السنة الفارسية ، ولم يكونوا يحتفلون به في شهر شتنبر من كل عام كما عليه الحال في المشرق وإنما كان يجري الاحتفال به في يوم 24 يونيو أي أنه يجيء في إسبانيا مختلطا مع عيد سان خوان أو العنصرة[341]، كما هو معروف عند فلاحي عامة الناس ولا يزال المغاربة يحتفلون به حتى الآن لاسيما في المراكز الفلاحية، كمدينة سلا التي كانت إلى عهد قريب تحتفل بهذا اليوم[342].

صحيح أن المغاربة كانوا يحتفلون بالأعياد خاصة الدينية منها لكن المورسكيين أضافوا إليهم بعض الطقوس والعادات خاصة في طرق إعداد بعض الأطعمة و الحلويات أو الاستماع إلى الموسيقى الأندلسية زد على ذلك بعض التأثيرات المسيحية في هذه الاحتفالات.

---

(340) – بوتشيش إبراهيم ، المغرب والأندلس... م. س، ص : 93.

(341) – بنعبد الله عبد العزيز، معطيات الحضارة المغربية ، دار الكتاب العربية، الرباط، ص : 42.

(342) – نفسه.

د. طقوس الجنائز

حرص المورسكيون على العمل بجدية من أجل إيصال الميت إلى مثواه في أبهى وأجمل صور الطهارة والتقديس لمضاعفة حسناته ومحاولة التشفع له ليسهل مروره إلى العالم الآخر ويتجاوز كل الامتحانات بنجاح وخاصة أننا نعلم ما لحقهم من اضطهاد للتخلي عن معتقداتهم، مما جعلهم يتظاهرون بالمسيحية وربما هذا التظاهر جعلهم يحسون بالتقصير في تأدية شعائرهم الإسلامية لهذا وجدناهم على هذا الحرص.

بعد تسليم الميت الروح لخالقها تبدأ النساء في البكاء فقد أكد الوزان على أن نساء فاس كن يجتمعن في دار الجنازة، وهن مرتديات الخشن من اللباس ويلطخن وجوههن بسواد دخان القدور[343] كما أكد وندوس[344] على أن بعض الاسر الغنية كانت تؤجر بعض النساء للبكاء وهي عادة إسبانية أيضا ويسمون Las planideras، وقد لقيت هذه العملية معارضة من قبل الفقهاء، لما لها من تعارض مع الدين الإسلامي الحنيف، ثم بعد ذلك كان يتم غسل الميت، لتطهير الجسد من الأوساخ وهي مناسبة أيضا لاجتماع عدد من الرجال من قرابة واصدقاء، الميت للمساهمة فيه ثم لمباركة الميت وذلك بتلاوة القرآن أثناء الغسل والدعاء له.

---

[343] – الوزان وصف إفريقيا، م،س ،ج 1 ، ص : 201– 202.

[344] – وندوس جون، رحلة إلى مكناس، م،س ، ص : 52

بعد عملية الغسل تأتي عملية التحنيط والحنوط هو طيب يوضع على أجساد الموتى لتطبيبها، وهو بذلك يختلف عن معنى التحنيط عند الشعوب القديمة والذي يقضي بحفظ الجسم من الفساد وبقائه على شكل مومياء.

وقد اعتاد الأندلسيون على الإكثار من الطيب في حنوطهم واستعملوا عطورا راقية فيه[345] بعد الانتهاء من تحنيط الميت تبدأ عملية التكفين التي استعمل فيها الأندلسيون أثواب القطن والكتان والحرير تباهيا وفخرا[346]، وقد حافظ الموريسكيون على هذه العادات وهذا ما أورده لوي كارياك حيث إن إيزابيل باريز Isabel Perez تمت إدانتها بعد أن غسلت الميت وغطته بكفن حسب التقاليد والعادات العربية وألبسته وفقا للدين الإسلامي ثلاثة أقمشة كتانية قميصا وسراويل نظيفة، وستارا على الوجه وفوق الكل كفن ابيض[347].

وتبقى أهم مظاهر التأثير الأندلسي في طقوس الجنائز هو في مجال لباس الحداد ثم في طريقة بناء القبور.

---

[345] – حقي محماد، موقف أهل المغرب والأندلس من المرض والموت خلال العصر الوسيط، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، الرباط 2001/2000، ص: 223.

[346] – دندش عصمت، من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس، (طقوس الجنائز)، مجلة كلية الآداب الرباط، ع 19، 1994 ص: 112.

[347] – كارดياك، الموريسكيون الأندلسيون،... م. س ص : 37.

- فبالنسبة للحداد تؤكد مجموعة من الإشارات المصدرية أن لباس البياض كان هو لباس الحزن في الأندلس إبان العهد الأموي[348]، بل إن دوزي يؤكد على أنه استمر بعد ذلك[349] لكن ما يثير الانتباه هي الإشارة التي أوردها يوسف شكري فرحات حيث أكد أن اللباس الأبيض كان لباس الأمويين والأزرق لباس الحداد عند الموحدين، أما بنو الأحمر فقد اختاروا اللون الأسود في لباس الحداد[350].

فهل بالفعل تغير لباس الحداد؟ الحقيقة أننا لا نستطيع أن نجزم، وكل ما يمكن قوله هو أن اللباس كان هو لباس الأمو يين وأنه هو الذي انتقل إلى المغرب ولازال إلى الآن وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنه ساد عند النساء الأندلسيات ارتداء أحذية سوداء، لكن باستمرار تعبيرا عن حزنهم على سقوط غرناطة[351].

بالنسبة للقبور أكد ميبج أن شواهد القبور بتطوان مزينة بزخارف زهرية على شكل زهيرات آتية من الهندسة الإسبانية، كما نجد أيضا بعض النصب التذكارية الجنائزية لإسبانيا في المدن

[348] – بيريس هنري، الشعر الأندلسي... م. س، ص : 266–267–268.

[349] –Dozy, Dictionnaire détaillé... Op , Cit, p : 20

[350] – شكري يوسف فرحات، غرناطة في ظل بني الاحمر، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1993، ص : 105.

[351] – القادري، نشر المثاني، ج 3، ص : 16.

التي استقرت بها الجالية المورسكية كسلا أو الرباط[352] كما أن الأندلسيين حرصوا على بناء القبور والقباب والسقائف والروضات عليها وتفننوا في زخرفتها ونقشها[353].

كانت زيارة القبور عند العنصر الأندلسي أسبوعية أيام الجمع، أو في الأعياد أو في أوقات الفراغ في بعض الأحيان للترحم على أمواتهم وكانت تدخل هذه الزيارات أيضا في إطار صلة الرحم لأن الناس لا ينظرون إلى الأموات كناس انتهوا وذهبوا بل لازالوا يعيشون معهم رغم أنهم لا يرونهم، وقد أورد لنا الرهوني في إشارة مهمة حول زيارة النساء للقبور، حيث كن يحملن بعض الزهور لوضعها على القبور أو يقمن بغرسها بجانبه[354] وبما أن هذه الأمور تشكل نشازا في الإسلام فربما كانت من التأثيرات المسيحية التي حملها العنصر الموريسكي إلى المغرب.

2.اللهو والمرح

بالرغم من الوضعية التي عاشها المورسكيون فقد تجلت في هذا الشعب روح المرح والنشاط فقد اعتاد على الاستمتاع بأوقات فراغه، وقضائها بشتى وسائل التسلية والترفيه.

---

(352) – Miege, Tetouan... Op, Cit, p :40

(353) – دنلش، من مظاهر الحياة الاجتماعية... م. س ، ص : 108.

(354) – الرهوني، عمدة الراوين... م. س ، ج 2 ، ص : 224.

أ. الموسيقى

كانت تعرف بالآلة تمييزا لها عن الموسيقى التي تؤدى دون آلات وهي السماع، وقد تمكنت الموسيقى الأندلسية أن تحتفظ إلى حد كبير بطابعها الأصلي في المغرب دون أن يفسدها تشويه أجنبي وأن تتأثر بالطابع المحلي كزيادة ميزان خامس للموازين الأندلسية الأربعة عرف بالدرج لأنه مدرج بين الموازين وهو خاص بالآلة الإشبيلية حيث لا يوجد في المألوف التونسي ولا في الغرناطي الجزائري[355]. وتخضع هذه الموسيقى لقواعد فنية دقيقة منذ أن وضع أصولها زرياب ثم تطورت بعده، ومعلوم أن زرياب تلميذ اسحاق الموصلي مطرب البلاط في عهد هارون الرشيد، وقد غادر زرياب بضغط من أستاذه حيث استقر بالأندلس، فطور هذا الفن بعد إدخال مجموعة من التعديلات كزيادة وتر خامس للعود[356]، وبقيت أوتار العود على حالها إلى الآن.

تأثر المغرب بمدرستين في مجال الموسيقى، المدرسة الإشبيلية وقد مثلت المرحلة الأولى أي من العصر المرابطي إلى العصر المريني ثم المدرسة الغرناطية بعد ذلك وقد أصبحت هذه الأخيرة هي المسطرة بفضل الهجرات الموريسكية في الفترة الوطاسية والسعدية حتى طغت

---

(355) – بنعبد الله عبد العزيز، كيف تطورت الآلة الإشبيلية والطرب الغرناطي في المهاجرات الأندلسية بالمغرب، مجلة التاريخ العربي، ع 13، 2000، ص 153.

(356) – المقري، نفح الطيب... م. س ، ج 3، ص : 126.

على المدرسة الأولى (إشبيلية) وبقيت هي الموسيقى التي بقيت للمغاربة من مخلفات الحمراء[357] وقد وصل مداها إلى مدينة وجدة التي يرجح أن دخول هذا الفن لها كان عبر الجزائر التي عرفت هي الأخرى استقراراً العديد من الأسر الموريسكية.

وإذا كانت الفترة المتأخرة من حكم السعديين قد عرفت تراجعا في مجالات متعددة ومن بينها مجال الموسيقى بسبب الفوضى التي عرفتها البلاد ، ثم اشتغال الموريسكيين بعمليات الجهاد البحري ضد الايبريين خاصة في تطوان والرباط، فإن مدينة فاس أخذت البادرة في مجال الموسيقى مستفيدة من بعدها على السواحل محتفظة لنا بهذا التراث، وبمجرد استتباب الأمن وخاصة على عهد السلطان العلوي المولى اسماعيل استعادت هذه الموسيقى نشاطها ، فقام الحسن بن أحمد الحايك التطواني الأندلسي الذي هاجرت أسرته قبل ذلك من تونس يجمع الموشحات الأندلسية في كتابه المعروف ب "كناش الحايك"[358] ، بعد اتصاله بمجموع منطقة الشمال بين سبتة والفنيدق وتطوان التي كانت مسرحا لكثير من الموريسكيين الذين ظلوا يترددون بين هذه المراكز مرددين الألحان الغرناطية في نغماتها الشجية أكثر منها في موشحاتها التي فقدوا نصها بإبعادهم إبان

---

[357] – المنوني محمد، تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب، مجلة البحث العلمي، ع : 14-15 – 1961.

[358] – الحائك محمد بن الحسن، كناش الحايك، مخطوط مصور بكلية الآداب الرباط.

المحنـة عـن لغـتهم وديـنهم(359) فكـان الفضـل للحائـك في وصـل مـا حملوه معهم إلينا.

وقد تميـز الطـرب الغرنـاطي الـذي حملـه الموريسـكيون والـذي كان يطلق عليه "نوبة غرناطة"(360) بطغيـان النفس الحـزين والايقـاع البطيء(361) ، ولا شـك أن هـذا الايقـاع يعـكس المعانـاة القاسـية الـتي كابدها هؤلاء لأزيد من قرن مـن الـزمن فأصبح الحـزن مـن مميـزات الوجـدان الأندلسـي، حيـث كانـت غرناطـة تضـم إضـافة إلى الموريسكيين مجموعة من الأقليات التي كانت تعيش نفس الظـروف كاليهود والغجر.

فقـدت الموسـيقى الغرناطيـة مجموعـة مـن النوبـات الموسـيقية حيـث لم يبـق مـن أصـل أربعـة وعشـرين نوبـة سـوى إحـدى عشـرة نوبة(362).

وهـذا يرجـع ربمـا إلى عمليـات إحـراق الكـتب والمخطوطـات التي قام بها الإسبان لطمس الهوية الإسلامية للأندلسيين.

انتشـرت الموسـيقى الأندلسـية بـالمغرب، رغـم ان لوطورنـو يشـير إلى أن العامـة كانـت لا تسـتطيع أن تسـتمع إليهـا إلا نـادرا(363) ، ممـا

---

(359) – بنعبد الله، عبد العزيز، كيف تطورت الآلة الإشبيلية... م. س، ص : 161

(360) - Attilio Gaudio, Maroc du Nord cités Andalouses et Montagnes Berberes, Paris, 1991, p : 79

(361) – الجراري عباس، التأثير الموريسكي في الطرب... م. س ، ص : 207– 208.

(362) - Attilio . G , Maroc du Nord... , op, cit , p :80

قد يوحي بأن هذه الموسيقى كانت نخبوية نوعا ما، ومع ذلك فقد أثرت في أنواع موسيقية أخرى كالملحون الذي كان يفضله الحرفيون، إذا لم تعد قصائد هذا اللون الموسيقى تعتمد على السرد فقط ولكن غدت منغمة ومؤداة بالآلات[364].

يبقى لنا أن نشير إلى أن هذه السهرات الموسيقية غالبا ما كانت ترافقها عادة شرب الخمر لاسيما في الأفراح وقد لاحظ كارديلك أن هذه العادة كانت من أهم العادات المسيحية التي ترسخت في العادات المورسكية وأن تردد شربها كان أكثر من أكل لحم الخنزير.

ب. النزهة

كانت من بين العادات المترسخة في المجتمع الأندلسي فقد كانوا مولعين بارتياد المواقع الطبيعية للنزهة والراحة والاستجمام ترويحا عن النفس وتربية للذوق، ويستشف هذا من اعتنائهم بالحدائق والمنتزهات فالمصادر مليئة بالإشارات إلى توفر المدن الأندلسية على حدائق وغابات الأشجار المهمة[365].

استمرت هذه الظاهرة في المغرب بعد هجرة المورسكيين، فقد لاحظ الوزان أنها كانت من عادات قضاء أوقات الفراغ بالنسبة

(363) – لوطورنو، فاس قبل الحماية... م. س، ص : 801.

(364) – الجراري، التأثير المورسكي... م. س، ص : 208 – 209.

(365) – ابن الخطيب، الإحاطة... ج 1 ، ص : 117.

لمختلف الشرائح لاسيما في الفترة الممتدة ما بين أبريل ونهاية شتنبر حيث يخرج الناس إلى البساتين[366].

وكان الفاسيون يسمونها "بالنزاهة"[367] فكانوا أثناء قيامهم بها يحملون معهم كل المستلزمات من طعام وفراش بالإضافة إلى أنهم يصحبون معهم بعض المغنين لتنشيط الاحتفال[368].

وكانت عادة ارتياد الشواطئ خاصة في فصل الصيف من بين عادات الأندلسيين أيضا لكن يبدو أنها تأثرت بأوضاع المغرب، ثم بانشغال المورسكيين بعملياتهم الجهادية انطلاقا من الشواطئ المغربية (تطوان – الرباط) مما جعلها تتوقف لتستمر بعد استتباب الأمن بل إلى وقتنا الحاضر.

ج. تسليات أخرى

كان الإنسان المورسكي دائما يبحث عما ينسيه الآلام التي عاشها إلى درجة أن روجي كواندرو وصف مورسكيي الرباط بأنهم يتعاطون لملذات الحياة وذلك بمخالطة الحانات وأماكن اللهو الأخرى ثم انفاق المال من أجل ذلك[369]، بل إن ظهور المقاهي بالمغرب يرجع

[366] – الوزان، وصف إفريقيا... م. س، ج 1، ص : 194 ، مارمول، إفريقيا، م. س، ج 2 ، ص : 160.

[367] – قضية النزهة في الحدائق والمناظر الطبيعية تتردد كثيرا في مجموعة من قصائد الملحون المغربي.

[368] – لوطورنو، فاس... ج 2 ، ص : 806 – 807.

[369] – كواندر، قراصنة سلا، م. س ، ص : 53.

إلى هذه الفترة وأن إحداثها كان على يد الأندلسيين[370] كما تعاطى الموريسكيون أيضا للعبة الورق والتي يرجع أيضا أنهم هم الذين أدخلوها[371]، حيث احتفظوا بأغلب أرقام أوراقها بأصلها الإسباني[372] وعرفت هذه اللعبة تفشيا كبيرا بين المغاربة بل لازلنا نراها حتى يومنا هذا والجدول الموالي يوضح بعض المصطلحات الإسبانية التي لازالت مستعملة في هذه اللعبة.

اللفظ بالدارجة المغربية	اللفظ بالفصحى	اللفظ بالإسبانية
لاس	واحد	Las
دوس	اثنين	Dos
تريس	ثلاثة	Tres
كواترو	أربعة	Quatro
سنكو	خمسة	Cinqo
سوطا	الجندي	Soldad
كبال	الفارس	Caballero
ري	الملك	Rey
ميسا	الطاولة	Mesa

(370) – نفسه.

(371) – حركات المغرب عبر التاريخ، ج 2 ص : 376.

(372) - Isaac , D. Abbou , musulmans Andalous et Juedo – Espagnols, édition Antar Casablanca 1953, p :77

هناك نوع آخر من أنواع التسليات لكنه لم يعد له وجود وهو مصارعة الثيران والتي انفردت بها غرنـــــاطة فهذه اللعبة رغم أن Jose Maris Cassio زعم أنها لم تظهر بإسبانيا إلا بعد انتهاء الحكم الإسلامي فيها[373] إلا أن الواقع يخالف ذلك ،فابن الخطيب أشار صراحة إلى وجودها في عصره بل إنه أثناء حديثه عن مدينة فاس أشار إلى وجود ملاعب خاصة بهذه اللعبة داخل هذه المدينة[374] ، وقد استمرت أيضا إلى غاية القرن10 هـ/ 16م أو ربما بعده، ويصف لنا الوزان هذه اللعبة بقوله "..يرتب في هذه الساحة عدد من صناديق كبيرة يسع كل واحد منها رجلا يقف داخلها ويتحرك بسهولة: لكل صندوق باب صغيرة ويجلس فيه رجل مسلح، وحينئذ يطلق الأسد حرا في الساحة فيفتح الرجال المسلحون أبواب صناديقهم بالتناوب مرة هذا ومرة ذاك، ويجري الأسد فورا نحو الذي يراه وعندما ما يقترب منه يغلق الرجل بابه ويستمر العمل هكذا إلى أن يهيج الأسد هيجانا شديدا فيطلق ثور داخل الساحة وتنشب معركة دامية بين الحيوانين فإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد ذلك اليوم وإذا قتل الأسد الثور كان على الرجال المسلحين أن يخرجوا من صناديقهم ويحاربوه وهم اثنا عشر رجلا يحملون

---

[373] – بوتشيش إبراهيم ، المغرب والأندلس م. س، ص : 96 – 97.

[374] – ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمدد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية ، ص : 176.

بأيديهم حرابا في طرف كل منها نصل حديد طوله ذراع ونصف ذراع، وإذا أظهر الرجال تفوقا على الأسد أمر الملك بنقص عددهم وإذا تفوق الأسد على الرجال سدد إليه الملك وأفراد حاشيته قاذفاتهم ورموه من أعلى الشرفات والتي يشاهدون منها ذلك المنظر وكثيرا ما يحدث أن الأسد قبل أن يموت يقتل أحد المحاربين ويجرح الآخرين وتبلغ الجائزة التي يمنحها الملك لكل محارب عشرة مثاقيل وكسوة جديدة "[375].

يمكن أن نلاحظ من خلال النص ما يلي:

- إن لعبة مصارعة الثيران كانت من وسائل الترفيه عند الطبقة الحاكمة
- إن هذه اللعبة لازالت منتشرة في إسبانيا والبرتغال وبعض دول أمريكا اللاتينية في حين اختفت بالمغرب وربما هذا راجع إلى كون الدين الإسلامي يحرم مثل هذه الألعاب التي تؤذي الحيوانات وتعذبهم.
- إن الأسد لم يعد له دور في هذه اللعبة إذ الصراع يكون بين المصارع والثور مباشرة.

---

[375] – الوزان، وصف إفريقيا م. س ، ج 2، ص : 294– 295. مارمول ، إفريقيا ، م. س ، ج 1، ص : 76 – 77.

هذا عن رسائل التسلية عند الرجال، أما النساء فقد كن يقضين أغلب أوقات فراغهن في الاجتماعات من أجل اللغو والثرثرة ويورد السويسي[376] عادة حملها الموريسكيون إلى المغرب وتسمى ب "اللاكسابة" وهي عبارة عن تجمعات نسوية تقام تلقائيا حيث جرت العادة بسباحة الأودايا أمام ضريح عبد الرفيع الأندلسي يوم الجمعة المتصل بيوم الخميس الأول من شهر رجب، فتخرج الطفلات مرتديات لباس العرائس ومتزينات بأفخر الثياب والمجوهرات، ويحضرها كذلك الأطفال صحبة أمهاتهم في أبهى حلة يتغنون بأهازيج وكلمات تدل على رغبتهم في الزواج متى آن الأوان ويبدو أن هذه العادة انقطع العمل بها، لكن خروج الطفلات وارتدائهن لباس العرائس والتزين بأفخر الثياب والمجوهرات لازلنا نراه في بعض المناطق المغربية خاصة عند صيامهن لأول مرة شهر رمضان المبارك الأمر الذي يدل على بلوغهن.

[376] – السويسي عبد الله، تاريخ رباط ، ... م،س ، ص : 159.



طوب بريس

العنوان: رقم 22، زنقة كلكوتة، المحيط، الرباط .
الهاتف: 21 31 73 37 05 (+212) - الفاكس: 28 39 26 37 05 (+212)
الموقع الإلكتروني: www.toppress.ma
البريد الإلكتروني: toppress2@gmail.com